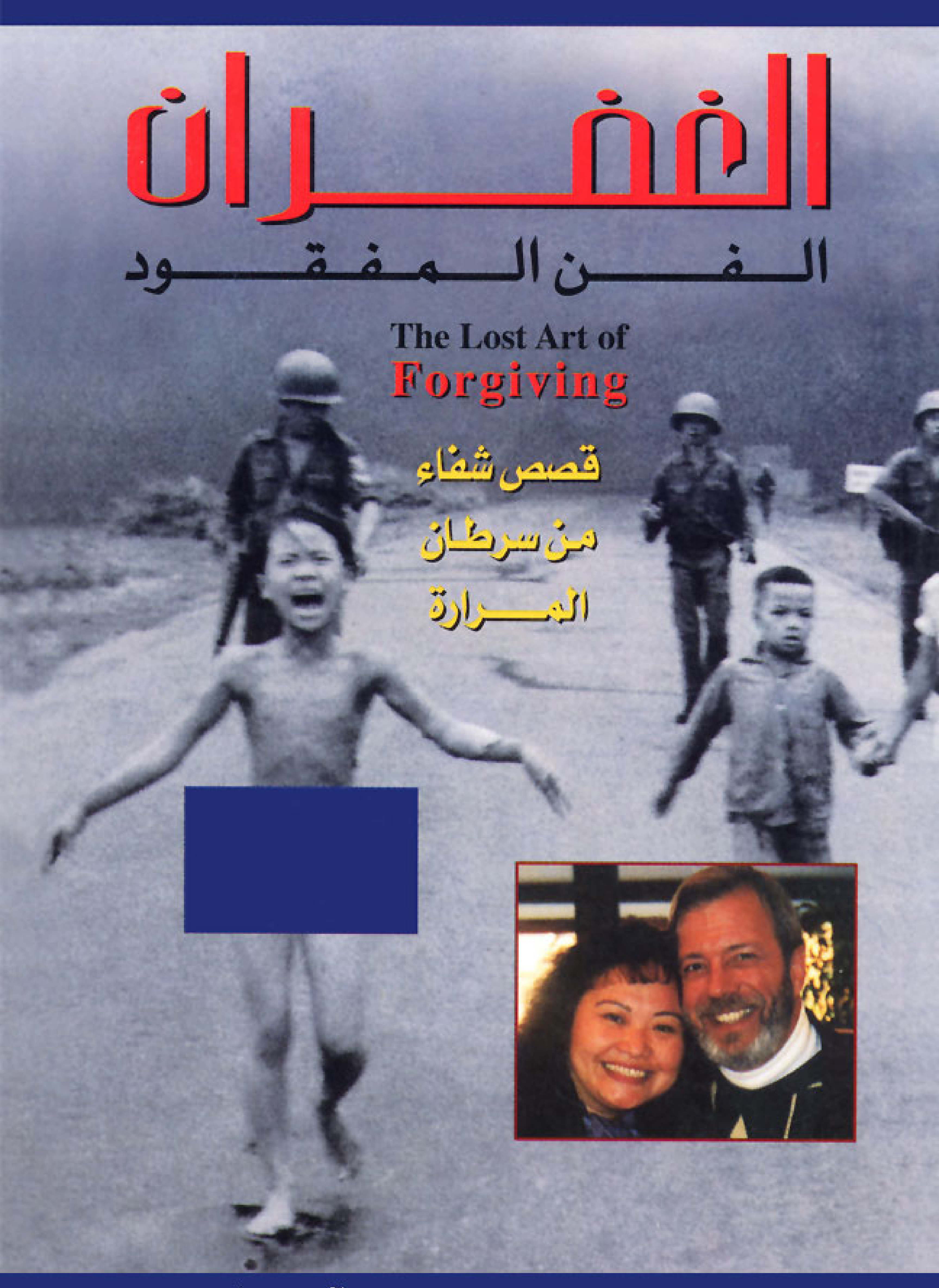
الغفران

الفن المفقود

The Lost Art of **Forgiving**

قصص شفاء
من سرطان
المرارة



يوهان كريستوف آرنولد

الغفران الفن المفقـود

قصص شفاء من سرطان المرارة

يوهان كريستوف آرنولد
ومقدمة يكتبها ستيف تشاك

إلى زوجتي فيرينا

التي بدون محبتها وتعضيدها لي،
ما كنت كتبت أي من هذه الكتب.

المحتويات:

المحتويات: iii
تقـديـم iv
هل يمكن الغفران لرجل مثل هذا؟ vi
سرطان المرارة والكراهية 1
التغلب على الكراهية بالمحبة 5
إنهاء دائرة الكراهية 13
باركوا الذين يضطهدونكم 20
الغفران والعدالة 29
الغفران حين تكون المصالحة مستحيلة 32
الغفران في الحياة اليومية 37
الغفران في الزواج 47
الغفران للأب الذي أساء معاملة أولاده 53
غفران الإنسان لنفسه 62
قبول المسئولية 69
هل يمكن أن "نغفر" لله؟ 76
الـكل صـار جـديداً 82
برودرهوف 84

تقديم

ماذا تفعل عندما يفاجئك صديقك بتصويب طلقات مسدسه نحوك؟
كانت إجابة هذا السؤال سهلة بالنسبة لروجر، فقد استخدم مسدسه، وقال إنه لو اتيحت له الفرصة لاستخدمه مرة أخرى لأن حياته كانت قد امتلأت برغبة متأججة في الانتقام لموت ابنته.

كانت سارة بالخارج تركب دراجتها عندما اصطدمت بسائق ثمل، وماتت في الحال، ولم يكن هناك شك في الشخص المتسبب في تلك الحادثة، وقد أُرسل السائق الذي لم يكن يحمل رخصة قيادة سارية إلى السجن بسبب إدانته السابقة بالقيادة وهو ثمل بتهمة القتل. لم يكن هذا العقاب كافياً بالنسبة لروجر، فعندما أُطلق سراح السائق من السجن استعار روجر بندقية وأطلق عليه الرصاص متعمداً.

وانقلبت الأدوار الآن، ووجد روجر نفسه متهماً بمحاولة قتل، والغريب أنه أبلى بلاءً حسنا على الرغم منه أنه كان يُحاكم بمحاولة الإطاحة بحياة إنسان. ووجدت هيئة المحلفين السائق، الذي لم يبد أي نوع من أنواع الندم، مثيراً للاشمئزاز، لدرجة أنهم أصدروا حكمهم بالإجماع على روجر "بأنه ليس مذنباً". إلا أن روجر لم يشعر بالرضا على الرغم من نجاحه في الإفلات من عقوبة سجن طويلة.

وعندما تحدثت معه وزوجته كاثي، كان كل ما يفكران فيه هو الانتقام من قاتل سارة، فسألت روجر إن كان الضغط على زناد المسدس ورؤية ذلك الرجل ينهار من الألم بعدما يطلق النار عليه سيجعله يشعر بأنه أفضل، فقال "لا. فقط عندما أقتله سأشعر بتحسن." فسألت كاثي عن مشاعرها تجاه هذا الأمر، فقالت: "لن أكون سعيدة إن قتل روجر ذلك الرجل، لأن هذا يعني أني لم أقتله أنا بنفسي، فأنا بحاجة إلى الضغط على الزناد بنفسي، أود أن أراه ميتاً، وأعلم أنني مسئولة عن موته."

تأثرت كثيراً بالحزن الذي كسر قلبيهما وأنا جالس معهما في منزلهما، ولا يمكن أن أتصور المحنة الرهيبة التي يمران بها. وفي عقلي شككت في عدالة القانون الذي أعطى قاتل سارة، الذي لم يبد أي شعور بالندم، عقاباً مخففاً. ولكني لم أستطع مقاومة الشعور بحزن أكبر بسبب الطريقة التي يتعاملان بها مع موت أبنتهما والتي تسببت في شعورهما بالتعاسة. وبدا لي أن عدم قدرتهما على الغفران ونسيان الأمر جعلهما في مواجهة جحيماً آخر. فمع صباح كل يوم جديد تمتلئ حياتهما بالشعور بالمرارة والكراهية وهو أمر مميت مثله مثل السرطان. هل هذا حقاً ما كانت سارة ستريده لوالديها؛ ذلك الجحيم الحي الذي يدمر حياتهما بالرغم من أنه ليس له أي تأثير على القاتل؟

هل هناك طريقة يستطيع بها أمثال روجر وكاثي أن يتعلما الغفران؟ هل يمكن أن يتحررا من الشعور بالمرارة الذي يعذبهما؟ يحاول يوهان كريستوف في كتابه "فن الغفران الضائع" أن يجيب عن بعض من هذه الأسئلة. ويمتلئ الكتاب بقصص أناس وجدوا القوة للغفران لهؤلاء الذين أساؤوا إليهم على الرغم من الظروف الصعبة، وعندما فعلوا، وجدوا السلام. إنهم رجال ونساء عاديين مثل جوردون ويلسون الذي قُتلت ابنته بسبب قنبلة في أينسكيلين، وفان تي كيم فوك الذي تتصدر صورتها غلاف هذا الكتاب وهي طفلة محترقة وعارية في سن التاسعة وسط الخراب الذي تسببت فيه حرب فيتنام. ويحوي الكتاب أيضاً قصص للغفران شبيهة إلى حد كبير بما يمكن أن يحدث في المنازل لأزواج وزوجات يعانون من الشجار المرير، أو ارتكبوا خطية الزنا أو كانوا ضحايا لاعتداءات في مرحلة الطفولة.

يعيد آرنولد سرد كل تلك القصص بمنتهى العطف والحنان ودون إدانة، وهي قصص مؤثرة ولا يمكن لأي شخص أن يقرأها ويظل كما هو، لأنها تحثنا على سبر أغوار جوانب طبيعتنا التي قد تهدد بدمارنا إن لم نراجعها. ولكنها أيضاً تقدم لنا وسيلة للخروج من لعنة المرارة والكراهية. يقدم هذا الكتاب رسالة هامة لكل من يجد صعوبة في أن يغفر للآخرين، أو لنفسه كما هو الحال مع كثيرين.

ولكن لا تعتمد على كلماتي، عليك أن تقرأ الكتاب بنفسك

ستيف تشاك
لندن 1997

مقدمة

هل يمكن الغفران لرجل مثل هذا؟

يا له من قانون صعب، ذلك الذي يقول أننا لا يمكن أن نُشفى من جروحنا العميقة مالم نغفر.

آلان باتون

في صباح أحد الأيام في سبتمبر 1995، وبينما كنت جالساً احتسي القهوة وأقرأ الصحف المحلية، ارتعبت حين قرأت عناوين الجريدة التي تخبرنا باختطاف فتاة عمرها سبع سنوات في وضح النهار، وتابعت القصة عن كثب طوال الأيام التالية.

لقد تم العثور على تلك الفتاة في خلال أسبوع في منطقة غابات على بعد ياردات قليلة من سجن المدينة، وقد تعرضت للاغتصاب والضرب حتى الموت، والأسوأ من ذلك أن الرجل الذي اعترف بارتكابه للجريمة اتضح أنه من معارف الطفلة أي شخص يمكنها أن تثق فيه.

كان من الممكن التنبؤ برد فعل الجمهور فهذا الرجل يستحق الموت، ويجب أن يُحكم عليه بأقصى عقوبة. وعلى الرغم من أن المحامي العام وعد بتقليل العقوبة لعشرون عاماً على الأكثر مقابل تبادل المعلومات التي أدت إلى إنقاذ جثة الطفلة، إلا أنه عدل عن رأيه بعد عدة أيام قائلاً أنه تعاهد مع الشيطان حتى يجد الطفلة وأنه يأمل أن يصبح أول نائب عام في تاريخ نيو يورك يقوم بتنفيذ حكم القتل في غرفة الإعدام، وقد اقترح سكان المدينة في الصحف أن تطلق السلطات سراحه حتى "يتولوا هم أمره."

وعلى الرغم من أن تلك المشاعر الغاضبة مفهومة، إلا أنني تساءلت هل هذه المشاعر تأتي بالعزاء لأسرة الضحية المكلومة؟! وقد شعرت تماماً بما يجب أن يكون عليه رد فعلي كراعي ورتبت ممثلين من كنيستي للمشاركة في الجنازة وارسلت الزهور لوالدي الطفلة، وحاولت جاهداً زيارة الأسرة ولكني لم أنجح في ذلك، إلا أن قلبي أمتلأ بالثقل، وبطريقة ما علمت أنه عليّ زيارة القاتل فقد

كان بالنسبة لي حتى هذه اللحظة وحش لا أعرف شكله وذلك لكي أواجهه بأفعاله وأساعده على معرفة الشعور بالندم تجاه ما ارتكبه.

أعلم أن البعض سينظر باستنكار لتلك الزيارة إن لم يسيئوا فهمها كلية ولكني كنت مقتنعاً بأن هذا هو واجبي. وهكذا وجدت نفسي بعد عدة أشهر جالساً بمفردي في سجن المدينة وجهاً لوجه مع ذلك القاتل، وقد صعقت من الأثر الذي تركته تلك الساعات التي قضيتها معه وتركت في داخلي مجموعة من الأسئلة من دون إجابة، وهي الأسئلة التي قادتني إلى كتابة هذا الكتاب، لماذا يجب عليّ أو على أي شخص آخر أن يغفر لهذا الرجل؟ وما الذي سيغيره الغفران؟، هل يمكنني أن أغفر له إن لم يبد أي شعور بالندم؟ وإن ابدى أي شعور بالندم هل من حقي أن أغفر له لأنه لم يؤذني أنا شخصياً؟

وبعد مضي أقل من ثلاثة شهور على زيارتي للقاتل واجه أخيراً أسرة الضحية، وقد كانت قاعة المحكمة تعج بالحاضرين ويمكنك أن تشعر بمشاعر العداوة بمجرد دخولها، وكانت العقوبة هي السجن مدى الحياة والتي تبعها القاضي بعبارة: "أرجو أن يكون الجحيم الذي تواجهه هنا الآن في السجن مجرد بداية للجحيم الذي ستواجهه في الأبدية"

وسُمح أخيراً للمتهم أن يتكلم بكلمات قليلة، فقال بصوت مرتفع لوالدي الطفلة أنه آسف فعلاً على الألم الذي تسبب فيه لهما وأنه يصلي يومياً للغفران، وعندما انتشر الهمس الغاضب بين الجالسين سألت نفسي أصعب سؤال: هل يمكن أن يُغفر لمثل هذا الرجل؟

.1

سرطان المرارة والكراهية

من يختار الانتقام يجب أن يحفر قبرين

مثل صيني

أن الغفران هو الطريق للسلام والسعادة، وهو السر الذي إن لم نسعى لاكتشافه ظل خفياً عنا. ليس الهدف من هذا المقال أن يكون بمثابة مرشد عملي للغفران لأنه من المستحيل أن تخبر شخص كيف يجب أن يغفر، ولكني آمل أن يساعد في توضيح السبب وراء الحاجة إلى الغفران.

الغفران أمر ممكن وهذا هو ما تُظهره قصص هذا المقال حيث تعلم الناس أن يغفروا حتى في أصعب الظروف. أتمنى أن أساعدك للوصول إلى باب الغفران بسردي لتلك القصص، وبمجرد أن تصل إلى الباب، تكون أنت الشخص الوحيد الذي يمكنك أن تفتحه.

ما معنى الغفران؟ قال سي. أس. لويس أنه يتعدى العدل الإنساني إذ أنه يصفح عن تلك الأمور التي لا يمكن الصفح عنها أبداً. هو إذن أكبر من مجرد التماس الأعذار، فعندما نلتمس العذر لشخص فأننا ننحي جانباً الأخطاء ولا نعاقبهم عليها، ولكن عندما نغفر فنحن لا نتسامح فقط في الخطأ أو فعل متعمد للشر ولكننا نعلم جيداً أن ذلك الشخص هو المسئول ونسعى إلى إعادة تأهيله واستعادته مرة أخرى. قد لا يكون غفراننا مقبول دائماً، ولكن بمجرد أن يكون الغفران في متناول أيدينا فأننا نطهر أنفسنا من الشعور بالكراهية. ربما نظل مجروحين ولكننا لن نستخدم الألم الذي نشعر به لإحداث مزيد من الألم للآخرين.

عندما نستعيد مرة أخرى الذكريات السلبية الخاصة بإساءة آخرين في حقنا، فهذا هو التذمر، ولا يهم ما إذا كان سبب هذا التذمر حقيقي أو خيالي، إذ أن تأثير

كلاهما واحد. فبمجرد أن نصل لتلك المرحلة سنجد أن التذمر والشكوى قد استهلكا قوانا حتى ننفجر ويفسد كل شئ من حولنا.

جميعنا يعرف أناس يشعرون بالمرارة، هؤلاء لديهم ذاكرة مدهشة لأدق التفاصيل، وينغمسوا في الشعور بالشفقة على الذات والكراهية. كما أنهم يوثقون كل ظلم وقع عليهم ودائماً على استعداد لأن يُظهروا للآخرين إلى أي مدى هم متألمين، وقد يبدون هادئين من الخارج ولكنهم مملوئين بالكراهية من الداخل.

وعادة ما يدافع هؤلاء الناس عن شعورهم بالسخط والنقمة باستمرار قائلين أنهم تألموا كثيراً وهذا يعفيهم بطريقة ما من حاجتهم للغفران. لكن هؤلاء الناس يحتاجون إلى الغفران أكثر من غيرهم، فقلوبهم في بعض الأحيان تمتلئ بالضغينة لدرجة أنه لم يعد لديهم القدرة على المحبة.

منذ ما يقرب من عشرين سنة تحدثت وأبي لوقت طويل مع امرأة من هذا النوع محاولين مساعدتها، فقد مات زوجها ولكنها كانت قاسية وبلا مشاعر مثل الصخرة، وعاشت حياة بلا لوم في نظر العالم، إذ كانت شديدة التدقيق وتعمل بجد، وأمينة ويعتمد عليها، ولكنها لا تستطيع أن تحب. وبعد شهور من الصراع اتضح السبب وراء شعورها بالبرودة إذ أنها لم تكن قادرة على الغفران، ولم يكن بإمكانها الإشارة إلى ألم معين ولكنها انحت بثقل آلاف من الأحداث الصغيرة مجتمعة معاً.

أن المرارة أكثر من مجرد نظرة سلبية للحياة إذ أنها مدمرة، ومدمرة للنفس أيضاً، فعندما تحتفظ بإرادتك بالضغينة تجاه شخص أخر فهذا له تأثير مدمر على النفس، إذ يفتح الباب للشيطان ويتركنا معرضين لأفكار الكراهية والانتقام بل وأفكار القتل. وبهذا تدمر النفس والجسد أيضاً. ونحن نعلم أن الضغط يمكن أن يتسبب في حدوث قرحة أو آلام بالرأس ولكننا عادة لا نرى العلاقة بين المرارة والأرق على سبيل المثال، فقد أظهرت الأبحاث الطبية علاقة بين الغضب والاضطرابات التي تصيب القلب.

منذ فترة ليست بطويلة، طُلب مني مساعدة امرأة شابة تدعى برندا كانت قد تعرضت للاعتداء الجنسي من عمها الخادم. وعلى الرغم من أنها كانت ضحية بريئة لذلك الرجل المرعب إلا أن شعورها بالبؤس كان جزء من تكوينها النفسي، ولم تكن تمتلك القدرة الكافية على الغفران.
وصرخت برندا إليّ يائسة بعدما قضت سنوات طويلة في الخوف من الفضيحة وفي إدمان الكحوليات، التي كان يمدها بها عمها كل يوم. خاضت برندا في غمار الحصول على استشارات من الأطباء النفسيين وكان لديها كل رفاهية

مادية يمكن أن ترغب فيها، وكانت في وظيفة مرموقة ولديها شبكة من الأصدقاء. وبالرغم من كل ما كانت تفعله لكي تقف على أقدامها مرة أخرى، إلا أن مشاعرها كانت تتأرجح ما بين الضحك والبكاء الذي لا يمكن إيقافه، وكانت تنغمس في التهام الطعام في أحد الأيام ثم تضرب عنه في اليوم التالي، وكانت تشرب زجاجة وراء الأخرى من المشروبات الكحولية.

ربما كانت برندا واحدة من أصعب الناس الذين حاولت مساعدتهم، وكنت متردداً في التحميل عليها بأي شعور بالذنب، ولكن بدا واضحاً لي أنه بإمكاني البدء في عملية العلاج. فما لم تتعلم الغفران للشخص الذي اعتدى عليها ستظل ضحية. ولكن للأسف كانت كل محاولاتنا معها فاشلة، فازداد شعورها أكثر وأكثر باليأس بسبب شعورها بالغضب والتشويش وأخيراً حاولت أن تخنق نفسها وتم نقلها للمستشفى.

وقد استغرقت الجراح التي تسبب فيها الاعتداء الجنسي سنوات لتُشفى، وعادة ما تترك مثل هذه الجروح آثار تستمر لفترة طويلة، ولكن يجب ألا يؤدي الأمر إلى الشعور بالعذاب مدى الحياة أو الانتحار. وفي كل الحالات التي تتشابه مع حالة برندا وجدت الضحايا يحصلون على الحرية وحياة جديدة عندما يغفرون للمغتصب ولهؤلاء الذين سمحوا باستمرار الاغتصاب أو فشلوا في رؤية ما يحدث في ذلك الوقت وبالتالي لم يتمكنوا من إيقافه. وهذا لا يعني النسيان أو التغاضي عن الأمر، ولا يتوقف على الالتقاء وجهاً لوجه مع المغتصب، ولكنه يعني أن تتخذ قراراً إرادياً بالتوقف عن الكراهية لأن الكراهية لن تقودك إلى شئ، فهي تنتشر في الشخص مثل السرطان حتى تدمره بالكامل.

منذ عدة شهور تقابلت مع آن كولمان وهي أم من ديلاوار أخبرتني بما حدث لابنها دانيل لأنه لم يستطع أن يغفر:

عندما قُتلت ابنتي فرانسيز في عام 1985 كنت يائسة. في صباح أحد الأيام تلقيت مكالمة تليفونية من ابنة أختي في لوس أنجلوس تقول: "فرانسيز ماتت، فقد أُطلق عليها الرصاص"
ولا يمكنني أن أتذكر أنني صرخت ولكني فعلاً صرخت، وخططت للذهاب إلى كاليفورنيا في الحال وفي الطائرة فكرت فعلاً أنه بإمكاني أن أقتل شخص ما، لو كان معي سلاح ورأيت الشخص الذي أصابها، لكنت فعلت ذلك فعلاً.

وبمرور الوقت هبطت الطائرة وكنت قلقة على الطريقة التي سأقابل بها أبني دانيل الذي ركب الطائرة من هاواي، وكان دانيل ضابطاً في الجيش ومدرباً على القتل.

وعندما وصلنا إلى قسم الشرطة في صباح اليوم التالي، كان الشئ الوحيد الذي أخبرونا به هو أن ابنتنا ماتت، وأن أي شئ آخر ليس من اختصاصنا، وللأسف بقى الحال هكذا طوال الأيام التي قضيناها في لوس أنجلوس، وأخبرني منسق جرائم العنف أنه إن لم يتم القبض على شخص ما في خلال أربعة أيام فلا يجب أن أتوقع أنهم سيقبضون على الجاني: "فلدينا الكثير من جرائم القتل هنا ، ولا نعير جريمة القتل سوى أربعة أيام فقط."

أغضب ذلك الكلام ابني دانيل للغاية، وعندما اكتشف أن قسم الشرطة غير مهتم فعلاً بالعثور على قاتل أخته أراد أن يشترى مسدس ويقتل كثيرين.

ولم يهيئنا أحد لما رأيناه عندما ذهبنا لنأخذ سيارتها، فقد نزفت فرانسيز حتى الموت في سيارتها، إذ اخترقت الرصاصات الشريان الأورطي وقلبها ورئتيها، وقد اختنقت بدمها، وماتت في وقت مبكر من صباح يوم الأحد وأخذنا سيارتها في وقت متأخر من مساء يوم الثلاثاء، وكانت عبارة عن بركة من الدماء، ولم تبرح تلك الرائحة ذهن دانيل الذي أراد الانتقام بأبشع صورة ممكنة، فقد أراد أن يقتل أي شخص كنوع من العدالة بسبب موت أخته.

وطوال السنتين والنصف التاليتين رأيت دانيل يهبط إلى الجحيم، فوقفت إلى جوار مقبرة أخته أراقبه وهو يسقط على الأرض، فقد قتل نفسه، ورأيت ما تفعله الكراهية، إذ أنها تدمر ذهن الإنسان وجسده.

.2

التغلب على الكراهية بالمحبة

الواقع *يقول لا ترجو*
علـى هذا الجانـب من القبر.
ولكن وأنت حي الآن،
ستعلو موجة العدالة التي
طال انتظارها،
وعندئذ يرتبط الواقع بالأمل

لذا ارجُ تغيراً كبيراً في البحر
بعيداً عن الانتقام
وآمن بأن هناك شاطئ أبعد
يمكن الوصول إليه من هنا
آمن بالمعجزات
وينابيع الشفاء

شيموز هينـي.

أمسك جوردون ويلسون بيد ابنته التي وقعت في فخ تحت جبل من الحجارة. كان ذلك في عام 1987 عندما كان وابنته ماريا يحضران خدمة كنسية في ذكرى سلمية في أينسكيلين، بشمال أيرلندا وهناك انفجرت قنبلة إرهابية. وفي نهاية اليوم لقت ماريا وتسع مدنيين آخرين مصرعهم ونُقل ثلاث وستون آخرون إلى المستشفى لإصابتهم بجراح.

والغريب أن جوردون رفض الانتقام قائلاً أن الكلمات الغاضبة لا يمكن أن تعيد له ابنته ولا أن تأتي بالسلام إلى بلده، وبعد ساعات قليلة من الانفجار تحدث مع مراسل الـ بي. بي. سي قائلاً:

لقد فقدت ابنتي، وطبعاً سنفتقدها، ولكن لست أحمل ضغينة، ولا حقد، فهذا لن يعيدها لي مرة أخرى. ولا تسألني من فضلك عن السبب، لأنه ليس لدي إجابة، ولكني أعلم أنه لا بد وأن هناك قصد وراء موتها. وإن لم أفكر هكذا فلا بد وأنني سأقدم على الانتحار، إذ أن موتها جزء من خطة أعظم، وسنتقابل معاً مرة أخرى.

ومؤخراً قال جوردون أن كلماته ليست مجرد إجابة نظرية عن موت ابنته، فقد كان يقولها دون تفكير من أعماق قلبه، وبعد مضي أيام وشهور على الانفجار صارع لكي يحيا بهذه الكلمات، ولم يكن هذا سهلاً. ولكن كانت هذه الكلمات بمثابة شئ يتعلق به، شئ ليجعله حياً في الساعات الحالكة.

كان يعلم أن الإرهابيين الذين قضوا على حياة ابنته لم يشعروا بالندم وقد أراد أن يحصلوا على العقاب ويودعوا في السجن، وقد أساء كثيرون فهمه لأنه رفض أن يطلب الانتقام لحياة ابنته.

هؤلاء المسئولون عن ارتكاب هذا الفعل سيواجهون دينونة الله، والتي لا أملك إعفائهم منها... وقد يكون خطأ بالنسبة لي أن أعطي انطباعاً بأن هؤلاء المسلحين ومن ضربوا تلك القنبلة يجب أن يطلق سراحهم ليسيروا أحراراً في الشوارع، ولكن سواء تمت محاكمتهم هنا على الأرض بقانون المحاكم أم لا، فأنني سأفعل قصارى جهدي لكي أُظهر لهم الغفران... وستكون الكلمة الأخيرة في هذا الموضوع في يد الله.[1]

سمح غفران جوردون له بأن يتأقلم مع وفاة ابنته المفاجئ وآثاره التي امتدت إلى أمور أبعد منه كشخص، فعلى الأقل كسرت كلماته دائرة القتل والانتقام وشعر قادة المليشيات البروتستانتية بخطئهم لشجاعته ولم يطالبوا بالانتقام.

حتى لو أدركنا حاجتنا إلى الغفران، فأننا في بعض الأحيان نُجرب بأنه ليس بإمكاننا أن نغفر، لأن الأمر ببساطة صعب للغاية، أو قد نظن أن القدرة على الغفران يتمتع بها القديسون لا نحن. وقد نعتقد أننا تألمنا كثيراً حتى أن أحداً لن يقدر أن يفهم ما مررنا به.

تأثر كثير من الأمريكيين بقصة ستيفن ماكدونالد ولكن بدا أن قليلون فقط هم الذين فهموا أن غفرانه عبارة عن قوة إرادة غير عادية. كان ستيف ضابطاً في

2 Ibid

البوليس في مدينة نيويورك حين أطلق عليه أحد المجرمين الرصاص مما أصابه بالشلل من الرقبة إلى أسفل في عام 1986 أثناء استجوابه لثلاثة من الشباب في سنترال بارك ولم يكن قد مضى على زواجه أقل من عام، وكانت زوجته حاملاً في الشهر الثاني.

كان تشافود جونس الشخص الذي هاجم ستيفن وكان يسكن في مشروع إسكان هارليم، بينما كان ستيفن يعيش في مقاطعة ناساو الغنيه. كان من الممكن أن تنتهي المقابلة بين الاثنين بالسجن لأحدهما وبالشعور بالمرارة طوال الحياة للآخر. ولكن قبل أن يتم إطلاق سراح تشافود كان ستيفن قد بدأ في مراسلته محاولاً أن يأتي بالسلام على حياته فكتب له:

> لم يبرح ذهني السؤال لماذا أطلق عليّ الرصاص وأنا مضطجع في سكس ساوث، أنظر إلى السقف متحيراً، ولكني وجدت أنه لا يمكنني أن أكرهه، فقد أتت به الظروف إلى سنترال بارك في ذلك المساء، ومعه مسدساً يخبئه في سرواله.

وكنت أمام ذلك الصبي مجرد شخص يمثل الحكومة، فقد كنت أنا النظام الذي جعل الملاك يطالبون بإيجار للشقق الحقيرة في المباني المتهالكة، وقد كنت أنا الجهة المسئولة في المدينة التي تداهم المناطق السكنية الفقيرة وتطرد سكانها بسبب سلطتي كضابط بغض النظر عما إذا كانوا أناس ملتزمين بالقانون أو مجرمين، وقد كنت أنا الضابط الأيرلندي الذي ظهر في نزاع محلي ورحل دون أن يفعل شئ لأنه لم يكن هناك خرق للقانون.

وبالنسبة لتشافود جونس كنت أنا كبش الفداء، والعدو. لم يرني كشخص أو كإنسان أو كزوج أو كأب في المستقبل، فقد تربى على نظرة مجتمعه لرجال الشرطة الذين يتسمون بالعنصرية والعنف لذلك كان عليه أن يتسلح ضدهم. لا يمكنني أن ألقي باللوم على جونس فقد كان المجتمع وعائلته والهيئات الاجتماعية المسئولة عنه والناس الذين جعلوا من المستحيل أن يحيا أبويه معاً هم الذين أعدوا الطريق أمام تشافود جونس لكي يتقابل مع ستيفن ماكدونالد في سنترال بارك...

> في بعض الأيام حين أشعر بأنني لست على ما يرام، أشعر بالغضب الشديد، ولكني أدركت أن الغضب عاطفة بلا فائدة. فأحيانا أشعر بالغضب تجاه ذلك المراهق الذي أطلق علي النيران، ولكني كثيراً ما أشعر بالأسى نحوه، فأرجو أن يتمكن من تغيير حياته لكي يساعد الناس لا لكي يؤذيهم. فأنا أغفرله وآمل أن يجد السلام والهدف لحياته."

لم يجب تشافود على خطاباتي في البداية، وعندما أجاب عليها فشلت المبادرة لأن ستيفن رجع في وعده بالمساعدة، ثم في أواخر عام 1995 بعد مضي ثلاثة أيام فقط من إطلاق سراح تشافود من السجن قُتل في حادث سيارة في مقاطعة ماديسون.

وعندما زرت ستيفن في منزله بلونج إيلاند بعد عدة شهور من هذه الحادثة، ذهلت من عيناه اللامعتان وبمدى عجزه، فالحياة على كرسي متحرك من الصعب جداً أن يقبلها العجوز ولكن أن تتخلى عن الحياة الطبيعية النشيطة في سن التاسعة والعشرين فهو أمر محبط. أضف إلى ذلك صعوبة التنفس والطفل ذا العشر سنوات الذي لا تستطيع أن تحضنه فسترى أمامك ستيفن ماكدونالد، ولكني لم أشعر بأي غضب أو مرارة في داخله.

فقد سكب قلبه أمامي بهدوء وبحزم ليشرح لي كيف أن التعرض لتلك الطلقة دفعه لكي يعيد تقييم حياته برمتها.

> في البداية كان الغفران طريق يجب أن أخطو فيه، طريق لأضع فيه هذا الحادث الفظيع خلفي ولكن فيما بعد أدركت أنني كنت أحيا حياة أنانية، وأنني أنا نفسي كنت بحاجة إلى الغفران، بهذه البساطة ومن غير لف ودوران.

ووجد ستيفين هدف ومعنى لحياته عندما بدأ يعلّم عن الغفران، فهو يتحدث بانتظام في المدارس الابتدائية والثانوية وفي حفلات التخرج، ويرى أن هذا هو العمل الذي أعطاه له الله ليتممه.

وبعد مضي أحد عشر عاماً من إطلاق الرصاص على ستيفن، ما زالت زوجته "باتي" أمينة تقف إلى جواره، وهما يصارعان يومياً مع حقيقة عجزه وآثارها على زواجهما، وكثيراً ما يقاوم ستيفن الشعور بخيبة الأمل وأفكار الانتحار، ولكن عندما سألته إن كان الغفران نفسه صراعاً، قال لا لأنه عطية.

لا يمكن أن يكون الغفران سهلاً عندما يُجرح الإنسان بشدة، ولكن حتى في الحزن العميق فأننا نواجه اختيار: أما أن نحب أو نكره، أن نغفر أو ندين، أن نسعى للمصالحة أو للانتقام. ربما يكون ستيفن قد استسلم للمرارة ولكنه يغير حياة كثيرين حتى هذا اليوم لأنه اختار طريق السلام والمصالحة.

ومن الأبطال الذين يعتز بهم ستيفن مارتن لوثر كينج، ففي أثناء زيارتي له طلب من الممرضة أن تأتي له مجموعة من كلمات ذلك القائد عن حقوق المدنيين والتي قرأ منها السطر المفضل لديه والذي يقول: "أن الغفران ليس تصرف عرضي، ولكنه اتجاه مستمر." [2]

غفر كريس كاريير لرجل قد يرغب كثيرون في موته، فعندما كان صبي في العاشرة من عمره في ميامي تعرض للاختطاف والاعتداء عليه من أحد موظفي والده السابقين ثم تركه بين الحياة والموت في فلوريدا، فكتب كريس قائلاً:

> يوم الجمعة 20 ديسمبر 1974 لم يكن يوماً عادياً، كان أخر يوم في المدرسة قبل إجازة عيد الميلاد وخرجنا من المدرسة مبكراً عن الموعد المحدد.
>
> تركت أتوبيس المدرسة في الساعة 1.15 بعد الظهر وبدأت في السير على أقدامي متجهاً للمنزل، وبدا أن هناك رجل عجوز يسير إلى جواري وهو يعرفني، وكنت على بعد منزلين فقط من منزلي فقدم إليّ نفسه على أنه أحد أصدقاء والدي، وأخبرني أنه يعد حفلة لوالدي وطلب مني مساعدته في الزينة.
>
> وافقت وسرت معه تجاه الشارع مرة أخرى حتى مركز الشباب حيث وضع سيارته التي هي منزل في ذات الوقت. وبمجرد أن ركبت السيارة، وضعت متعلقاتي حتى أريح نفسي.
>
> اختفت ميامي من أمامي بسرعة لأن الرجل كان يتجه نحو الشمال، وأوقف السيارة في منطقة بعيدة عن المواصلات العامة وعلى جانب الطريق، وأدعى أنه فقد الاتجاه السليم، وأعطاني خريطة وطلب مني أن أبحث عن رقم معين، ثم رجع للخلف في السيارة "ليأخذ شئ ما"

---

3 Steven and Patti Ann McDonald with E.J. Kahn, The Steven McDonald Story (New York: Donald I Fine, 1989) 133 – 136

4 The Words of Martin Luther King Jr, Selected and Introduced by Coretta Scott King (New York: Newmarket Press 1983)

وفيما أنا منتظر وأدرس في الخريطة شعرت بلسعة في كتفي ثم أخرى، فألتفت ورائي لأجده يحمل قطعة من الثلج بين يديه. ثم سحبني من مقعدي على الأرض، وجلس عليّ وضربني في صدري عدة مرات، ورجوته أن يتوقف عن هذا ووعدته بأنه لو تركني وشأني فأني لن أخبر أي شخص بما حدث.

وشعرت بالراحة عندما قام من عليّ، وأخبرني بأنه سيلقي بي في مكان ما وبعدها سيكلم أبي وسيعرفه مكاني. وسمح لي أن أجلس في مؤخرة السيارة وهو يقودها، ولكن أدركت تماماً أن هذا الموقف خارج نطاق سيطرتي، وعندما سألته لماذا يفعل هذا معي، قال أن أبي "جعله يفقد جزء كبير من أمواله."

وبعدما قاد السيارة لما يقرب من ساعة أو أكثر اتجه إلى طريق جانبي ترابي، وأخبرني أن هذا هو المكان الذي سيأتي إليّ أبي ليأخذني منه، وسرنا معاً في هذا الطريق وجلست في المكان الذي أجبرني على الجلوس فيه، وآخر ما أتذكره هو رؤيته وهو يسير في طريقه ويتركني.

وبعد مضي ستة أيام، وفي مساء يوم 26 ديسمبر وجد صائد غزلان كريس، وكانت رأسه تنزف وعينيه سوداء، فقد أطلق عليه الرصاص في رأسه، ولم يصب مخه بأذى، ولكنه لا يتذكر أن هناك من أطلق عليه الرصاص.

في الشهور التالية صارع يومياً مع شعوره بعدم الأمان لأنه يعلم أن الشخص الذي اختطفه حر طليق، وكان عليه أن يتجاوب مع الآثار المترتبة على جرحه حيث أصيب بالعمى في أحد عينيه، مما جعله غير قادر على الاشتراك في أي رياضة، وكان قلق بشأن مظهره وهو في سن المراهقة.

كره كريس التحدث عما حدث له وتذكر كيف أن هذا الحدث تركه بائس للغاية. والغريب أنه تغير عند سن الثالثة عشر، فقد بدأ يري الكابوس الذي حدث بطريقة أخرى، وأدرك أن جرحه كان من الممكن أن يكون أسوأ من هذا بكثير، فربما تعرض بسببه للموت، وأدرك أيضا أنه لا يمكنه أن يظل غاضباً للأبد، وقرر أن ينسى هذا الحدث والانتقام والشفقة على الذات للأبد.

وفي 3 سبتمبر 1996 تلقى كريس مكالمة تليفونية غيرت حياته مرة أخرى، فقد اتصل به محقق من قسم شرطة كورال جابليس في البيت ليخبره أن هناك رجل يدعى دافيد ماك أليستر اعترف بأنه اختطفه، فقد كان دافيد يعمل كممرض لعم

كريس العجوز، وطُرد من عمله لأنه كان يعاني من مشكلات صحية بسبب تناوله للخمر، فقام كريس بزيارة دافيد في اليوم التالي.

> عندما زرته شعرت بالشفقة على هذا الرجل، فلم يعد دافيد ماك اليستر الشخص الذي اختطفني، ولكنه أصبح رجل عجوز في السابعة والسبعين من عمره وكان وزنه أقل من ستين رطلا، وقد أصبح أعمى بسبب المياه الزرقاء، وقد دُمر جسده بسبب الخمور والتدخين، ولم يعد له أصدقاء أو عائلة. كان رجل يواجه الموت بندم شديد.

> وعندما بدأت أتحدث مع دافيد كان قاسياً، فربما أعتقد أنني ضابط شرطة آخر، فسأله أحد أصدقائي الذي رافقني بعض الأسئلة البسيطة لكي يقوده للاعتراف بأنه اختطفني، قائلاً: "ألا ترغب في أن تخبر ذلك الصبي الصغير أنك ندمت على ما فعلته معه؟" فأجاب دافيد مؤكداً: "أتمنى لو كان هذا بإمكاني." عندها قدمت نفسي له، وعلى الرغم من أنه لم يستطع رؤيتي ألا أنه أمسك بيدي وأخبرني بأنه آسف على ما فعله معي، وعرضت عليه صداقتي وأخبرته بأنني غفرت له.

يقول كريس أنه لم يكن صعب عليه أن يغفر، ولكن وسائل الإعلام لم تفهم لماذا غفر له أو كيف حدث هذا. لقد أُعجبت وسائل الإعلام بقدرته على الغفران ولكنها لم تستطع أن تدرك ما الذي دفعه لمثل هذا الغفران. فوسائل الإعلام لا تعي عادة معنى الغفران فيبدو أنها تركز على قصة الاختطاف وتفاصيل التعذيب، أما كريس فيكتب قائلاً:

> هناك سبب قوي للغفران، فعندما يخطئ الآخرين في حقنا يمكننا أن نتجاوب مع هذا الأمر بطريقتين أما أن نسعى للانتقام من الشخص الذي أخطأ في حقنا أو أن نغفر له. وإن اخترنا الانتقام، سيطر الغضب على حياتنا، لأن الثأر يُسلبنا حياتنا، إذ من الصعب أن ترضي مشاعر الغضب التي في داخلنا، إلا أن الغفران يسمح لنا بالتقدم للأمام.

> وهناك سبب آخر يدفع الإنسان للغفران، فالغفران عطية ورحمة. هو عطية حصلت عليها ويمكنني أن أقدمها للآخرين، وفي كل الحالات أشعر بالرضا التام.

وفي الأيام التالية لهذا الاجتماع بدأ كريس في زيارة دافيد بصفة منتظمة مع زوجته وابنتيه، وقضى الرجلان ساعات طويلة في الحديث وذابت قسوة الرجل العجوز بالتدريج، وفي أحد الأمسيات بعد ثلاثة أسابيع من تلك الحادثة مات دافيد.

تُظهر لنا قصص جوردون وكريس وسيتفين التناقض في السر الذي نطلق عليه "الغفران"، فيجد كثيرون منّا أنه من الصعب أن نتخلى عن الضغائن الصغيرة ولكن هؤلاء الرجال الثلاث الذين عانوا أكثر مما يمكن أن يتخيله العقل البشري استطاعوا أن يغفروا أصعب الأخطاء. وربما لا يكون هذا بسبب طبيعتهم ولكنه يرجع إلى قوة أعلى منهم، وفي النهاية استمد هؤلاء الرجال قوتهم للغفران من إيمانهم بالله، لا من بحثهم عن السلام.

.3

إنـهاء دائرة الكراهية

لو كان بمقدورنا مجرد فصل أولئك الأشرار ممن يرتكبون الأفعال الشريرة في أي مكان وبعدها ضرورة القضاء عليهم. إلا أن الخط الفاصل ما بين الخير والشر يتغلغل قلب كل إنسان منـّا. ومن هذا ياترى يرغب في القضاء على جزءاً من قلبه؟

ألكسندر سولزهينيتسين

تعلمنا كأطفال الكلمات المألوفة في الصلاة الربانية والتي تعزي كثيرين منا بصفة خاصة في الأوقات الصعبة أو أوقات الأزمات: "أغفر لنا كما نغفر نحن أيضاً." ولكن ما مدى الجدية التي نأخذ بها الرسالة التي تحملها هذه الكلمات حتى نجد القوة لنغفر عندما ندرك احتياجنا نحن أيضاً للغفران؟ ولا يأتي لنا مثل هذا الإدراك بسهولة، فقد يبدو أنه من الأسلم أن نتمسك ببرنا الذاتي.

أخبرنا يسوع القصة التالية ليوضح لنا معنى هذه الكلمات في الصلاة الربانية:

> أراد رجل تصفية حساباته مع عبيده، فأتى أحد العبيد الذي يدين له بآلاف الجنيهات ليقف أمامه معلناً أنه لا يستطيع تسديد هذا الدين، فأمر الرجل الغني أن يُباع هذا العبد وزوجته وأولاده حتى يسترد الدين. وعلى الرغم من أنه من حق ذلك الرجل الغني أن يطلب هذا الأمر إلا أن الخادم توسل إليه، فتحنن الرجل الغني عليه، ومحا الدين وسمح له بالذهاب. ولكن هذا الاختبار جعل الخادم يشعر بأنه متزعزع، وقلق على حالته المادية، وبمجرد أن رجع إلى منزله ذهب إلى صديق كان قد أقرضه جنيهات قليلة يطالبه بالسداد، ولكن صديقه لم يستطع أن يسدد له الدين، وتوسل إليه أن يرحمه ولكن الخادم رفض، وألقى به في السجن.

> عندما رأى العبيد الآخرون ما فعله ذلك الخادم تضايقوا جداً وأخبروا الرجل الغني بكل ما حدث. فاستشاط غضب الرجل الغني واستدعى الخادم ليطالبه بشرح تصرفه هذا. "لقد توسلت إليّ حتى ألغي دينك، فلغيته. لماذا لم تظهر نفس مستوى الرحمة مع صديقك وفعلت معه مثلما فعلت أنا معك؟، دفع الرجل الغني في غضبه بالخادم لأيدي الحراس ليعذبوه حتى يدفع كل ما يدين له به.

من أقوى الدوافع للغفران هو خبرتنا نحن أيضاً عندما يُغفر لنا، وإدراكنا لحاجتنا إلى الغفران عن الأخطاء التي ارتكبناها في حق الآخرين.

يخبرنا جاريد أحد طلبة الجامعة وهو أمريكي من أصل أفريقي من بوسطن بقصة صراعه مع الغفران:

> كنت في السادسة من عمري عندما أدركت حقيقة العنصرية، فقد دُفع بي من البيئة الآمنة في منزلي إلى العالم في المدرسة الابتدائية التي تقع على قارعة الشارع الذي أقطن فيه. ذهبت لتلك المدرسة لمدة عام قبل أن تصدر المدينة قانون يحتم عليّ الانتقال إلى مدرسة أخرى في المدينة المجاورة، ولم يسعد أبواي بهذا القانون، فقد أرادا لي الذهاب إلى المدرسة التي عرفتها وأحببتها، وكانا يمتلكان مزرعة في المدينة، لهذا انتقلنا إليها...
>
> كان والدي مؤيداً لحركة الحقوق المدنية وعلّمنا أن نحب الجميع ونحترمهم سواء كانوا بيضاً أم سود. لم أدرك في ذلك الوقت الصراع العنصري، وكنت الطفل الوحيد الأسود في المدرسة وكان من الواضح أن كثيرين من الأطفال الآخرين تعلموا أن يكرهوا، فالأطفال يمكن أن يكونوا قساة فيما يتعلق بالفروق التي يلاحظونها بينهم وبين الآخرين، فيبدءون بسؤال برئ: لماذا لون بشرتك بني؟، وبعدها يضحكون ويسخرون لأنهم يعلمون أن البشرة البنية شئ مختلف إلى حد ما، ففي مرحلة ما تعلموا أن هذا اللون ليس "طبيعيا".
>
> شعرت بأنني لست في المكان السليم، وكأني سمكة تخرج من الماء. ولم يكن هؤلاء الأطفال يتعاملون معي بطريقة سلسلة، وأتذكر بصفة خاصة حادثة أثرت فيّ للغاية عندما قدمتُ

صديق أبيض لي لصديق آخر في الأتوبيس في أحد الأيام ومن ذلك اليوم صار هذان الصديقان معاً وتركاني.

ثم عندما كنت في الصف السابع في المدينة كان هناك طفل واحد أبيض في فصلي يدعى شون وهو الطفل الوحيد الأبيض في المدرسة كلها، فكنا نعامله كالمنبوذ ونعتدي عليه بالضرب، إذ نتخلص من مشاعر الكراهية التي نحملها نحو البيض في شون. وبالرغم من أنه لم يفعل شئ لنا، إلا أننا كنا نشعر بالغضب الشديد تجاهه، فقد كان يمثل كل ما نعرفه عن البيض وتاريخهم لإذلال لشعبنا، والقتل والإجرام وتجارة العبيد، فأخرجنا كل المرارة والغضب على هذا الصبي.

الآن أستطيع أن أرى أن ما فعلناه في شون كان خطأ، وقد كنا بهذا عنصريين، وهو الشيء الذي كرهناه في البيض. وما زلت حتى هذا اليوم أطلب الغفران عن الألم الذي تسببت فيه لشون، وأطلب أيضاً الغفران لهؤلاء الأطفال الذين لم تعرف قلوبهم كيف يحبونني عندما كنت الطفل الوحيد الأسود في وسطهم.

هيلا إيرليتش عضوة في حركة برودرهوف وهي من أصل يهودي نشأت في ألمانيا النازية، ونجحت عائلتها في الهجرة قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية وبالتالي نجت من معسكرات الموت، ولكنهم مروا بكثير من المتاعب، فقد توفي والدها عن سن 42 عاماً وفقدت كل أجدادها سواء من ناحية الأب أو الأم وكذلك أصدقاء الطفولة في الهولوكوست.

وتحكي صراعها الطويل مع المرارة وعدم رغبتها المستمرة في الغفران والتي تذكرتها في أحد الأيام أثناء اجتماع ضم مجتمع برودرهوف كله:

جلستُ مرتعدة إذ كنت مقتنعة أنني لو نظرت إلى قلبي لوجدت بذار الكراهية فيه أيضاً، وأدركت أن بذار الكراهية موجودة في كل إنسان، فأفكار الغضب ومشاعر الضيق من الآخرين والبرودة والغضب الحسد وعدم المبالاة هي جذور ما حدث في ألمانيا النازية. وهنا أدركت ولأول مرة، أكثر من أي وقت مضى، حاجتي الماسة إلى الغفران وأخيراً شعرت بالحرية الكاملة.

جوزيف بن إليعازر وهو عضو آخر من أسرة يهودية وُلد في عام 1929 في فرانكفورت بألمانيا من أبوين يهوديين من شمال أوربا. قد هاجر والداه من بولندا مثلهم مثل آلاف آخرين للهروب من الاضطهاد والفقر، إلا أنهم لم ينجو من أي منهما.

تقابلتُ لأول مرة مع معادين السامية عندما كنت في الثالثة من عمري أثناء مراقبتنا لجنود هتلر وهم يمرون أمام نافذة منزلنا وهم يغنون أغنية فهمت معناها في ذلك الوقت. كانت تقول "عندما تسيل دماء اليهود من أسلحتنا"، وما زلت أذكر الرعب الذي كان يظهر على وجه والديَّ.

وأخيراً قررت عائلتنا ترك البلد وفي نهاية عام 1933 انتقلنا إلى روزوادو بولندا عن طريق نهر سان، وكان معظم سكانها من اليهود الذين يعملون كحرفيين، وخياطين، ونجارين وتجار، وكان هناك فقر شديد ولكن بالرغم من هذا الفقر الشديد كنا نعتبر من الطبقة المتوسطة، وعشنا في روزوادو طوال الستة أعوام التالية.

وفي عام 1939 بدأت الحرب وفي غضون أسابيع دخل الألمان إلى مدينتنا، واختبئ أبي وأخي الأكبر في العلية على سطح المنزل وعندما يقرع أحد على الباب ويسأل عنهما نخبره بأنهما ليس بالمنزل.

وجاء الإعلان العام الرهيب بأن كل اليهود عليهم أن يجتمعوا في الميدان الرئيسي بالمدينة، وأُعطيت لنا مهلة ساعات قليلة. فأخذنا ما استطعنا حمله ووضعناه في صرة لنتمكن من حملها على ظهورنا. ومن الميدان دفعنا الجنود للمشي حتى نصل إلى نهر سان، وهو يبعد بعض الأميال عن القرية، وكان الرجال المجندين يرتدون الزي العسكري ويركبون الدراجات البخارية من على جانبي الطريق، ولن أنسى كيف توقف أحدهم وصرخ فينا لكي نسرع، ثم توجه ناحية والدي وضربه.

عند ضفة النهر كان هناك جنود آخرين بزيهم الرسمي ينتظروننا ويقومون بتفتيش اليهود بحثاً عن الأشياء الثمينة من مال أو مجوهرات أو ساعات. ولم يجدوا المبلغ الذي أخفاه والدي في ملابس أختي الصغيرة، ثم أمرونا أن نعبر النهر إلى

أرض ليس فيها إنسان ولم يخبرنا أحد بما يجب أن نفعله لهذا وجدنا مأوى في قرية عبر النهر.

وبعد عدة أيام سمعنا فجأة أن هذه المنطقة أحتلها الألمان أيضاً، فانتابنا الذعر واشترى والديّ بالأموال التي أخفوها هم وعائلتين أو ثلاث آخرين حصان وعربة لكي تحمل الأطفال الصغار والأشياء التي حملناها على ظهورنا.

اتجهنا شرقاً إلى روسيا أملاً في الوصول إلى الحدود قبل حلول الظلام، ولكننا وجدنا أنفسنا في غابة كبيرة وقد حل الظلام. وهناك هاجمنا رجال مسلحين وطلبوا أن نعطيهم كل ما نملك. كانت لحظات مرعبة ولكن كان هناك رجال قليلين في مجموعتنا مما كانت لديهم الشجاعة لمقاومة هؤلاء الرجال الذين هاجمونا، وفي النهاية رحل الرجال آخذين دارجة وأشياء أخرى صغيرة.

قضت أسرة جوزيف سنوات الحرب في سيبيريا، ونجحوا بمعجزة في الهروب إلى فلسطين وبعد الحرب تقابلوا مع اليهود الذين نجوا من معسكرات الإبادة:

وبدأ الأطفال الذين نجوا من تلك الحروب ومعسكرات الإبادة في الوصول إلى فلسطين في عام 1945، وارتعبتُ مما قصه هؤلاء الأطفال الصغار الذين بالرغم من أنهم لم يتجاوزوا سن الثانية عشر أو الثالثة عشر أو الرابعة عشر إلا أنهم كانوا مروا بأحداث رهيبة، وبدوا كأنهم رجال بلغوا من العمر أطوله. شعرت بالاشمئزاز والإحباط.

صارعت مع الاحتلال البريطاني طوال الثلاث سنوات التالية، وامتلأت بالكراهية نحو البريطانيين وخاصة بعدما بدءوا في وضع قيود على هجرة الناجين من الهولوكوست إلى فلسطين، وقلنا أننا نحن اليهود لن نسير مرة أخرى مثل الغنم للذبح دون أن نقاتل، وشعرنا أننا نعيش في غابة تعج بالحيوانات المتوحشة، وأننا يجب أن نكون مثل الوحوش حتى نستطيع أن نحيا في العالم.

وعندما خرجت بريطانيا من فلسطين، كانت هناك حروب بين اليهود والفلسطينين على الأرض، والتحقت بالجيش لأني كنت مقتنعاً أنه لا يمكن أن أسمح لنفسي بالاستمرار في الخوف.

وأثناء حملاتنا على رام الله أمرت كتيبتي الفلسطينيين أن يتركوا بيوتهم خلال ساعات، ولم نسمح لهم أن يرحلوا بسلام ولكننا سكبنا غضبنا عليهم، وضربناهم وعاملناهم بقسوة، ولقي بعضهم حتفه، ولم تكن لدينا أوامر بفعل هذا، ولكننا فعلنا هذا من تلقاء أنفسنا. لقد انطلقت مشاعر الغضب المكبوتة داخلنا.

وفجأة لمعت أمام عيني طفولتي في وقت الحرب في بولندا، واستعدت في ذهني خبرتي كطفل في العاشرة من عمره يُبعد عن بلدته، والآن أمامي هؤلاء الناس رجال ونساء وأطفال يهربون بكل ما يمكنهم أن يحملوه، والخوف في عيونهم، خوف أعرفه جيداً. شعرت بجرم ما أفعله ولكن كانت هناك أوامر واستمررت في البحث عن أشياء قيمة، وعلمت أنني لم أعد ضحية ولكني الآن أملك القوة.

ترك جوزيف الجيش ولكنه ما زال غير سعيد. ترك اليهودية وترك الدين برمته وحاول أن يفهم العالم ويفهم الشر الذي يحدث فيه، ولكن لم ينجح.

هنا اختبرت لأول مرة حقيقة الغفران، وأسأل نفسي كيف لا يمكن أن أغفر للآخرين على الرغم من أنني أنا نفسي بحاجة إلى الغفران. إن حياتي تمتلئ بالأمل بأنه في يوم من الأيام سيمتلئ الناس في كل أنحاء العالم بنفس الروح التي خلصتني.

كان لكل من جيراد، وهيلا وجوزيف أسباب مقنعة لعدم الغفران لأعدائهم، فمن وجهة النظر البشرية كانوا أبرياء، وكانت الأعباء التي يحملوها نتيجة لكراهية الآخرين وليس كراهيتهم للآخرين، ولهذا كان لهم كل الحق في أن يشعروا بالمشاعر التي شعروا بها.

لا أحاول للحظة أن أقول أن الغفران سهل خاصة لهؤلاء الذين ذبحوا عائلتك وأصدقائك وجيرانك، ولكن من خبرتي كراعي ومشير أقول أن هؤلاء الذين لا يستطيعون أن يغفروا سيظل مضطهديهم ضحايا لهم بعدما ينتهي الخطر أو الألم الجسدي.

والأكثر من ذلك أن بإمكان جيراد وهيلا وجوزيف أن ينهوا دائرة الكراهية بالغفران بالرغم من أنهم أنفسهم عانوا كثيراً، فاستطاعوا أن يتحرروا من مشاعر الرعب التي انتابهم في الماضي.

.4

باركوا الذين يضطهدونكم

يقف الإنسان في حيرة من أمره أمام بعض الأفكار خاصة فيما يتعلق بخطيئة الإنسان، ويتسائل: هل يجب أن أستخدم القوة أم المحبة المتواضعة؟ ... قرر دائماً استخدام المحبة المتواضعة! ... وإن صممت أن تفعل ذلك مرة واحدة وللأبد، فربما ستُخضع العالم كله لك. فالمحبة المتواضعة قوية للغاية، ومن أقوى الأشياء، ولا يوجد شئ مثلها.

فيودور دوستوفيسكي

قال يسوع المسيح في الموعظة على الجبل أنه يجب أن نحب أعدائنا. نعم، فقد قال أنه يجب أن "نبارك" لاعنينا، ولم تكن هذه مجرد نظرية ولكنه مبدأ أظهره هذا بوضوح في كلماته على الصليب حين قال: "يا أبتاه أغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون." وصلى أسطفانوس أول شهيد في المسيحية صلاة مشابهة لهذه عندما تعرضت حياته لنهاية عنيفة إذ قال: "يا أبي لا تقم لهم هذه الخطية."

> يسخر كثيرون من هذه الأفعال ويعتبروها حماقة مدمرة للنفس. فكيف لنا أن نبارك هؤلاء الذين يسعون لإيذائنا أو وضع نهاية لحياتنا؟

من الأشخاص الذين رأوا أنهم يجب أن يغفروا مارتن لوثر كينج "ربما لا يوجد وصية من وصايا يسوع يصعب تنفيذها مثل تلك الوصية التي تأمرنا أن نحب أعدائنا." وقد كتب هذا في كتابه الذي كان من أفضل الكتب مبيعاً في عام 1963 بعنوان "قوة المحبة".

> يشعر بعض الناس أن الممارسة الفعلية لمحبة الأعداء مستحيلة، فيقولون أنه من السهل أن تحب هؤلاء الذين يحبوك، ولكن كيف يمكن للمرء أن يحب هؤلاء الذين يسعون بكل عزمهم أن يهزموك...؟

أن محبة أعدائنا وصية هامة جداً إن أردنا أن نظل على قيد الحياة بغض النظر عن أنها نصيحة لكل شخص يحلم بالعالم المثالي. فمحبتنا لأعدائنا مفتاح لحل مشكلات هذا العالم. فلم يكن يسوع بالشخصية المثالية الإمبريالية ولكنه كان شخص عملي.

أن الرد على الكراهية بالكراهية يضاعف من الكراهية ويضيف ظلمة أعمق لليل بلا نجوم، فلا يمكن للظلمة أن تخرجنا من الظلمة، لأن النور فقط هو الذي سيخرجنا من الظلمة. ولا يمكن للكراهية أن تخلصنا من الكراهية، فالمحبة فقط هي التي يمكنها أن تفعل هذا. تأتي الكراهية بمزيد من الكراهية والعنف بمزيد من العنف والقسوة بمزيد من القسوة في سلسلة الدمار.

المحبة هي القوة الوحيدة القادرة على تحويل العدو إلى صديق. فلا يمكن أن نتخلص من أعدائنا عندما نقابل كراهيتهم بكراهية، ولكننا نتخلص من العدو بالتخلص من العداوة، فالكراهية بطبيعتها مدمرة، أما المحبة بطبيعتها فتبني.

إن إلتزام كينج بالمحبة كسلاح سياسي نمّا من إيمانه المسيحي، ولكن كان هناك أيضاً نزعة للبراجماتية في تفكيره، فهو يعلم أنه وكل أتباعه من الأمريكيين ذوو الأصول الأفريقية لن يعيشوا لعقود تالية في نفس المنطقة التي كانوا يعسكرون فيها للاعتراف بحقوقهم المدنية، والتي حرموا لمائتي عام منها بسبب لون بشرتهم، فلو سمحوا لأنفسهم بالشعور بالمرارة تجاه الأسلوب الذي يُعاملون به فسيتحول الأمر إلى عنف سيؤدي إلى مزيد من الكراهية والمرارة في المستقبل. ولكن عندما كسروا جدار الكراهية العنصرية، بنوا حياتهم، وعندما غفروا لمن اضطهدوهم تحرر الأمريكيين ذوو الأصول الأفريقية والأمريكيين البيض من "سلسلة الدمار". فالغفران فقط يمكن أن يفتح الطريق للأمام من أجل مستقبل أفضل.

يجب أن ننمي قدرتنا على الغفران ونحافظ عليها، فمن لا يوجد في داخله قوة الغفران ليس في داخله قوة المحبة. ومن المستحيل أن تبدأ في محبة أعدائك دون أن تكون قد قبلت أهمية الغفران لهؤلاء الذين أساءوا إليك أو جرحوك، ومن الضروري أن تدرك أن الغفران هو فعل يجب أن يبدأه الشخص الذي

أخطأ في حقه والضحية التي تعاني من جرح كبير، والشخص الذي تلقى ظلم فظيع، والشخص الذي تحمل الاضطهاد. وقد يطلب الغفران من أساء إليك ، وربما يأتي بنفسه مثل الابن الضال من الطريق المليء بالتراب ويمتلئ قلبه بالرغبة في الحصول على الغفران، ولكن الشخص المجروح والأب المنتظر في البيت هو الذي يستطيع فقط أن يسكب ماء الغفران الدافئ.

والغفران لا يعني تجاهل ما حدث أو أن تطلق أسم أخر على الفعل الذي حدث، ولكنه يعني ألا يبقى ذلك الفعل الشرير عائقاً في العلاقة، فالغفران هو الأساس الذي يخلق جو جديد ضروري من أجل بداية جديدة.

فنقول لمن أساءوا إلينا: "سنقابل قدرتكم على تعذيبنا بقدرتنا على تحمل المعاناة، وسنقابل القوة المادية بقوة النفس، فافعلوا فينا ما تريدون ولكننا سنظل نحبكم، ولا يمكننا أن نطيع قوانينكم بضمير صالح لأن عدم التعاون مع الشر ضرورة أخلاقية تماماً مثلها مثل التعاون مع الخير. ألقوا بنا في السجون ولكن سنظل نحبكم، أرسلوا قواتكم إلى مجتمعناً في منتصف الليل، اضربونا واتركونا بين أحياء وأموات ولكن سنظل نحبكم. كونوا متأكدين من أننا نرد عليكم بقدرتنا على تحمل الألم، ففي يوم ما سنحصل على حريتنا ولكن لا لأنفسنا. سنحصل عليها حتى نكسبكم وستكون نصرتنا مضاعفة."[3]

في ربيع عام 1965 خرجت في مسيرة مع مارتن لوثر كينج في ماريون- ألاباما لأكتشف لأول مرة محبته العميقة وتواضعه في مواجهة الظلم الفظيع.

كنت أزور أصدقاء قدماء في معهد تاسكجي عندما سمع بموت جيمي لي جاكسون وهو شاب أُطلق عليه الرصاص منذ ثمانية أيام عندما اخترق رجال الشرطة مظاهرة للكنيسة في ماريون، واندفعت قوات الشرطة من كل أنحاء ألاباما لتجتمع في المدينة وضربت المتظاهرين بالعصي وسقطوا في الشوارع.

وصف المتفرجون المشهد بأنه عنف غير عادي حيث قام البيض المتفرجين بتحطيم الكاميرات وإطفاء أنوار الشوارع، في حين قامت قوات الشرطة

[3] Ibid

بمهاجمة الرجال والنساء بوحشية، واستمر بعضهم في الركوع والصلاة في طريقهم إلى كنائسهم، وكانت جريمة جيمي أنه اعترض ضابط الشرطة الذي ضرب والدته بلا رحمة، وكان عقابه أن يتم إطلاق الرصاص عليه في بطنه ويلقى ضربة بالعصى على رأسه يوشك على الموت. رفضت المستشفى المحلية دخوله لذلك نُقل إلى "سالمة" حيث استطاع أن يخبر المحققين بقصته، ومات بعد مضي عدة أيام.

ذهبنا إلى "سالمة" على الفور عندما سمعنا بموت جيمي، وكان المنظر في كنيسة بروان غير عادي إذ كان التابوت مفتوحاً ولكن على الرغم من أن الحانوتي بذل قصارى جهده لكي يخفي جروح جيمي إلا أنه لم يستطع إخفاء الجرح الذي في رأسه، فقد كانت هناك ثلاث جروح قاتلة، كل منها طوله حوالي ثلاث بوصات أحدها يمر فوق أذنيه والأخر في قاع الجمجمة والأخير في مقدمة رأسه.

وكنا أول اثنين يحضران هذه الجنازة بعدما تأثرنا بالموقف بشدة، وكان المكان يعج بحوالي ثلاثة آلاف شخص (كثيرون منهم كانوا يقفون بالخارج) وجلسنا على شباك في الخلف. لم نسمع تعليق عن الغضب أو الانتقام في تلك الجنازة، بل انتشرت روح التشجيع بين الحاضرين وبصفة خاصة عندما رنموا ترنيمة العبيد القديمة: "لن أسمح لشخص أن يبعدني عما أريد."

وفيما بعد كان الجو السائد في كنيسة صهيون المعمدانية في ماريون أكثر خضوعاً، فقد كان هناك صف طويل من قوات البوليس يقفون في ساحة محكمة المدينة، وأيديهم تمسك بعصي ليلية وهم ينظرون إلينا، كانوا هم نفس الرجال الذين هاجموا السود بماريون منذ عدة أيام قليلة، وتجمع جمهور البيض في منطقة قريبة من ساحة المدينة وكانوا أقل رعباً، وسجلوا بالصور كل ما يحدث لدرجة أننا شعرنا أن كل واحد بمثابة هدف للكاميرا.

وفي هذا التجمع تحدث كينج عن الغفران والمحبة، وطلب من شعبه أن يصلوا من أجل رجال الشرطة وأن يغفروا للقتلة، وأن يغفروا لهؤلاء الذين يضطهدونهم، ثم أمسكنا بأيدي بعضنا البعض ورنمنا، "سنغلب". كانت لحظات لا يمكن نسيانها، ولو كان هناك سبب للانتقام أو الكراهية فلا بد وأنه موجود هنا، ولكن لم يشعر أحد بذلك ولا حتى والدي جيمي.

كان الذهاب إلى "سالمة" محفوفاً بالمخاطر، فبعد أربعة أيام فقط من الجنازة زحفت جيوش مونتجمري التي قابلتها الشرطة بالغازات المسيلة للدموع وقامت قوات الشرطة بضربها بلا رحمة، وبعد مضي يومين تعرض موظف حكومي

أبيض في بوسطن للضرب في وسط "سالمة" ومات متأثراً بجراحه. وخلال الثلاثة أسابيع التالية لقت فيولا ليوزو وهي سيدة بيضاء من ديترويت مصرعها بطلق ناري عندما كانت تقل رجلاً أسود من مظاهرة، (لقد فعلنا نفس الأمر من أسبوع واحد فقط، عندما أوصلنا ثلاثة سيدات كن بحاجة إلى وسيلة مواصلات تقلهم إلى ماريون)

بعد عدة سنوات تأثرت بشدة عندما قرأت عن غفران أطفال "سالمة" في نفس تلك الأيام من فبراير ومارس 1965، فقد نظم الطلاب مسيرة سلمية بعد المدرسة ووصل مأمور البلدة، وبدأ هو وتابعيه في دفع الأطفال ونخسهم، وسريعاً ما هرب الأطفال. فكر البنات والأولاد في البداية أن رجال الشرطة يدفعونهم إلى سجن المدينة ولكنهم وجدوا أنهم متجهين إلى معسكر السجن على بعد خمسة أميال من المدينة، ولم يهدأ رجال الشرطة إلا عندما تقيأ الأطفال. وفيما بعد ادعوا أنهم أرادوا أن يحولوا "حمى المظاهرات" في "سالمة" للخير.

بعد عدة أيام من تلك الحادثة نُقل المأمور إلى المستشفى بسبب إصابته بآلام في الصدر. والأمر الذي لا يمكن تصديقه هو أن أطفال المدارس في "سالمة" نظموا مظاهرة ثانية خارج المحكمة هذه المرة للصلاة من أجله ومن أجل إظهار نواياهم الحسنة.

لاحظ روبرت كولس وهو طبيب نفسي مشهور للأطفال الاتجاه الواضح للغفران بين الأطفال عندما عمل في مستشفى نيو أورلنز في عام 1960. هناك لم يكتف الأباء البيض المعارضين لقرار المحكمة الفيدرالية بالإنهاء الجبري للفصل في مدارس المدينة بسحب أطفالهم من أي مدرسة تسمح بوجود طالب أسود ولكنهم رابضوا أمام المدارس أيضاً ليمنعوهم من الدخول.

كانت هناك طفلة تدعى روبي بريدج في السادسة من عمرها وكانت الطفلة الوحيدة الأمريكية من أصل أفريقي في مدرستها. ولأسابيع طويلة كان عليها دخول المدرسة في حراسة الحرس الفيدرالي. وفي أحد الأيام رأتها المعلمة وهي تتمتم بكلمات من فمها حين تعبر صفوف الأباء البيض الغاضبين، وعندما ذكرت المدرسة ذلك أمام كولس انتابه الفضول ليعرف ما الذي تقوله؟
وعندما سألها أجابت روبي أنها تصلي من أجل الأباء البيض، فاندهش كولس وسألها لماذا تصلين لهم؟ فأجابت: "لأنهم بحاجة لمن يصلي لأجلهم" فقد سمعت في الكنيسة كلمات يسوع وهو يموت على الصليب قائلاً: "يا أبتاه أغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون" وقد اخترقت هذه الكلمات قلبها، رأى كلولس روبي بريدجز ومن مثلها على أنها بذار ولادة أمريكا الجديدة.

علمت مؤخراً من جيمس كريستينزن وهو أحد معارفي ورئيس دير في روما قصة عن الغفران. في عام 1996 اختطفت مجموعة من المسلمين الأصوليين سبعة من أتباع جيمس في جبال أطلس وهددت بأن تحتجزهم رهائن حتى تطلق فرنسا عدداً من زملاءهم المسجونين. وعندما رفضت الحكومة الفرنسية شقت تلك الجماعة رقبة الرهبان.

ارتعبت فرنسا كلها وأطلقت كل كنائس فرنسا الكاثوليكية وعددها 40000 كنيسة أجراسها في نفس الوقت ذكرى لهؤلاء الرهبان. ما أثر فعلاً فيّ من هذه المأساة شئ مختلف تماماً وقعت ظلاله منذ عامين، فقبل المذبحة الجزائرية ذكر كريستان دي تشرجي أنه سيموت سريعاً ميتة عنيفة وكتب خطاب غفران لمغتاليه مسبقاً، ووقع الخطاب وتركه مع والدته في فرنسا، ولم يُكتشف الخطاب إلا بعد موته وفيما يلي جزء منه:

> إن كان يجب أن يحدث هذا في يوم من الأيام وربما يكون اليوم أني أكون ضحية للإرهاب الذي يستهدف كل الأجانب الذين يعيشون في الجزائر، فأود أن يتذكر المجتمع الذي أعيش فيه والكنيسة وعائلتي أنني وهبت حياتي لله وللجزائر، وأن يقبلوا بأن الواهب الوحيد للحياة لم يجهل هذه الميتة الفظيعة. عندما يأتي الوقت أود أن تتيح لي الفرصة لكي أطلب الغفران من الله لي ولأتباعي في البشرية وأن أغفر من كل قلبي للشخص الذي سيقتلني.
>
> ربما لا أرغب في هذه الميتة ويبدو أنه من المهم أن اذكر ذلك، فكيف سأفرح إذا أُتهم الشعب الجزائري الذي أحبه بقتلي؟
>
> أشكر الله في هذه الحياة الضائعة، فأني أشكره على كل شئ يحدث في حياتي من الآن وإلى الأبد. وأود أن أشملك هنا في صلاتي يا صديق لحظاتي الأخيرة لأنك لا تعلم ماذا تفعل، واسلمك لله الذي أراك في وجهه، وربما نجد بعضنا البعض في السماء، إن رضي الله الآب عنا.

ومن الواضح أن هذا الرئيس وأتباعه لم يكونوا مجرد رجال شجعان ليقبلوا مثل هذا الموت، فهناك كثيرون من أمثالهم، إذ أمتلئ هؤلاء الرجال بروح التواضع النادرة ومحبة الغفران والتي يمكن أن نصفها بأنها مشابهة لروح المسيح.

تحتاج أماكن قليلة في هذه الأرض إلى المصالحة مثل إسرائيل. فقد سافرت إلى تلك الأرض التي مزقتها الحروب، لأول مرة في عام 1988 حيث قابلت ألياس تشاكور وهو كاهن فلسطيني عمل لسنوات طويلة بلا كلل من أجل السلام، واستمرت صداقتنا حتى هذا اليوم، وقد زارني ألياس مرتين.

تعرض ألياس لمشاعر مرارة عميقة، فهو "رجل بلا دولة" فمنذ أن دُمرت قريته في عام 1947 دخل السجن أكثر من مرة وتحمل سنوات من القسوة والاعتداء على أيدي الحكومة الإسرائيلية، ولكن ألياس واحد من أكثر الناس الذي عرفتهم مملوءين بالحرارة والتواضع والحنان. فعلى الرغم من أنه فلسطيني مشرد إلا أنه ما زال مقتنعاً طوال الوقت بفكرة: "أن اليهود يستحقون وطن لا لأنهم يهود ولكن لأنهم بشر" وفي زيارته الأخيرة لمجتمعنا الأخوي في بريطانيا ذكّرنا قائلاً:

> إذا أمتلئ قلبي بالغفران لليهود وللصهيونيين، وللجنود الذي كسروا عظام أخي وسجنوا أبي، فيمكنني إذن الذهاب إلى اليهود لأخبرهم بالحق وجهاً لوجه، وسيشعرون أني أحبهم على الرغم من أني أكره ظلمهم، وأفضل دعوته ليتغير بدلاً من تغيير الأحكام وممارسة الظلم نحوه– حاشا لله.

ويشارك نعيم عتيق وهو كاهن فلسطيني معروف في كاتدرائية سان جورج في أورشليم بنفس النظرة.
فقد تعلم الغفران من أبيه الذي فقد كل شئ بسبب الجيش الإسرائيلي في عام 1948.

> "إن الناس عندما يكرهون يشعلون مشاعر الغضب والكراهية التي تتعبهم ... لذلك واصل مقاومة الشعور بالكراهية والحقد ... ففي وقت ما سيكون لك اليد العليا، وفي أوقات أخرى ستشعر بأنك انهزمت. وعلى الرغم من أن هذا صعب للغاية ولكن لا تدع الكراهية أن تتغلب عليك.
>
> لا تكف عن محاولة العيش بوصية المحبة والغفران.
> ولا تهمل القوة التي في رسالة يسوع ولا ترفضها على أنها كلمات غير عملية، ولا تحاول أن تكيفها مع وضعك محاولاً أن تجعلها أكثر إمكانية للتطبيق في الحياة العملية. لكن احتفظ بها كما هي وأرغب فيها وأعمل مع الله من أجل تحقيقها."

وهناك بشارة عوض وهو أحد معارفي من الفلسطينيين الذي جُرح بسبب نصيبه في الظلم، فقد أخبرني مؤخراً عن صراعه الذي استمر طوال حياته ليغفر:

"ففي عام 1948 مات آلاف الفلسطينيين في الحرب الفظيعة التي قامت بين العرب والمستوطنين اليهود وتشرد كثيرون، ولم تسلم عائلتنا من هذه الحرب، فقد قُتل والدي برصاصة، ولم يكن هناك مكان يليق بدفنه، فالجميع كان يخشون أن يتركوا تلك المنطقة خوفاً من أن تصيبهم الرصاصات ولم يكن هناك خادم أو قس ليصلي. لهذا قرأت لنا أمي من الكتاب المقدس ودفن الرجال الذين كانوا موجودين أبي في الساحة، فلم تكن هناك وسيلة لكي يأخذوه إلى المقابر العادية في المدينة.

وأصبحت أمي أرملة في سن التاسعة والعشرين، ولديها سبعة أطفال، وكنت في ذلك الوقت في التاسعة من عمري، ولعدة أسابيع حاصرتنا النيران ولم نستطع أن نترك غرفة البدروم، وفي أحد الليالي دفعنا الجيش الأردني للهروب إلى المدينة القديمة، وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي رأيت فيها منزلنا وإثاثنا، وهربنا بملابسنا على ظهورنا وكان بعضنا يرتدي ملابس النوم فقط.

وفي المدينة القديمة كنا لاجئين، فوضعونا في مخازن بلا أثاث، وأعطتنا أسرة مسلمة بعض البطاطين وبعض الطعام. كانت الحياة قاسية للغاية وما زلت أتذكر الليالي التي كنا نذهب فيها للنوم بلا طعام.

وتدربت أمي لكي تصبح ممرضة، وحصلت على وظيفة في المستشفى بمبلغ 25 دولاراً في الشهر، وكانت تعمل في الليل وتستكمل دراستها أثناء النهار، وتم وضعنا نحن الأطفال في الملاجئ، وقبلت مدرسة مسلمة أخواتي البنات أما نحن الصبيان فقد تم وضعنا في منزل سيدة بريطانية، وكان هذا كارثة بالنسبة لي فقد فقدت والدي والآن آخِذتُ من أمي ومن عائلتي.

كان يسمح لنا بزيارة المنزل مرة في الشهر، وإلا مكثنا في بيت البنين لمدة أثنى عشر عاماً. استمرت معاناتي وأخوتي وثمانين ولد آخر، فلم يكن لدينا ما يكفي من طعام، وكان الطعام سيئاً للغاية، وكانت المعاملة قاسية."

ذهب بشارة إلى الجامعة في الولايات المتحدة وأصبح مواطن أمريكي، وعاد مرة أخرى إلى إسرائيل وحصل على وظيفة كمعلم في مدرسة مسيحية، وعندما ينظر إلى حياته وإلى الوراء يقول:

في السنة الأولى شعرت بالإحباط، فلم أنجز أي شئ. شعرت بالهزيمة، فقد كان هناك جبل من الكراهية في داخلي ضد اليهود الظالمين، وكان كل تلاميذي من الفلسطينيين، وجميعهم عانوا بنفس الطريقة التي عانيت بها، فلم أستطع مساعدتهم بسبب مشاعر الكراهية التي كانت بداخلي والتي كنت قد راعيتها منذ مرحلة الطفولة دون إدراك.

وفي تلك الليلة صليت إلى الله بدموع، وطلبت منه أن يغفر كراهيتي لليهود لأني سمحت للكراهية أن تسيطر على حياتي، فأخذ الله في تلك الليلة مشاعر الإحباط والكراهية وفقدان الأمل ووضع مكانها المحبة.

وعادة ما يتجنب الناس الغفران إن لم يحتقروه في ذلك المجتمع الذي يؤكد على الفردية وأهمية الحفاظ على الذات، فيعتبر الغفران ضعف. لقد تعلمنا أن نطالب بحقوقنا ونحميها لا أن نستسلم لليهود.

ولكن راجا شيهاده وهو محامي فلسطيني لحقوق الإنسان قال أن يسوع غيّر هذا المفهوم لديه عندما دعا الناس إلى الغفران لأعدائهم.

إن الغفران بحد ذاته له طاقة جباره. فهو تأكيد على رُقيّ كرامة الإنسان حين يملك المرء الوسيلة والقدرة على الغفران... ربما يكون من الصعب أن تفهم ذلك ولكن من وجهة النظر المثالية أعتقد إنه إن كانت هناك رغبة في إحلال السلام هنا فلا بد أن يكون هناك غفران... فيجب أن نغفر للإسرائيليين ما فعلوه فينا.

الغفران يقوي حياتنا وعملنا، ويأتي بالراحة الحقيقية لأصعب المواقف لأنه يسمح لنا أن ننحني جانباً العدالة الإنسانية والمجازاة عن الشر بالشر وأن نختبر السلام الحقيقي للقلب، والأكثر من ذلك فهو يوظف سلسلة من ردود الأفعال الإيجابية التي تأتي بثمار الغفران للآخرين.

.5

الغفران والعدالة

الحق بلا محبة يقتل والمحبة بلا حق كذب

إبرهارد آرنولد

يفرق بيل شادويك من لويزانا بين الغفران واختلاق الأعذار بوضوح عندما كتب عن موت ابنه ميشيل. شعر بيل بحاجة ملحة إلى رؤية العدالة تأخذ مجراها في حادث مقتل أبنه، ولكن في النهاية اكتشف أن العدالة نفسها لا يمكن أن تأتي له بالرضا والسلام اللذان يسعى للحصول عليهما:

> قُتل ابني ميشيل في الحادية والعشرين من عمره في 23 أكتوبر 1993 في حادث تصادم سيارة، ولقى صديقه المقرب الذي كان يجلس في المقعد الخلفي مصرعه أيضاً، ولم يصب السائق الذي قتلهما -والذي كان ثملاً للغاية ويسير بسرعة جنونية- سوى بجروح طفيفة. ووُجِه له إتهام القتل الخطأ، وكان هناك أثار بسيطة للخمر في دم ميشيل ولم يجد أي آثار في صديقه.
>
> ودارت عجلات العدالة ببطيء وقد استغرقت المحكمة أكثر من عام لكي تُعد القضية ضد السائق. وحضرنا جلسة استماع وراء الأخرى، وفي كل مرة يتم تأجيل القضية، وكانت هناك محاولة من قبل محامي المتهم لعدم الأخذ باختبارات الكحول في الدم ولكنها باءت بالفشل، وأخيراً حُكم بأن السائق مذنب وحكم عليه بالسجن لمدة ستة سنوات.
>
> اقترحنا على الضابط المعين لمراقبة سلوك المذنب أن برنامج معكسرات التدريب سيكون نافعاً لذلك الشخص المذنب، ولم نكن نود أن نؤذيه ولكننا رأينا أنه بحاجة أن يدفع جزاء ما فعله. ولكننا تلقينا خطاباً قبيحاً للغاية من والدته تخبرنا فيه بأننا دفعنا

القاضي للحكم بأقصى عقوبة على أبنها، وقالت أنه لو كان ابنها هو الذي مات بسبب قيادة ميشيل ما كانت لتحمل في قلبها ضغينة ناحيته. وقلت لها أنه حتى يموت ابنها يجب ألا تتكلم عما ستفعله أو لن تفعله.

وتم حبس ابنها لمدة ستة أشهر في معسكر تدريبي على أن يقضي باقية السنوات الست مطلق السراح المشروط. فسيعود ابنها إلى بيتها في خلال ستة أشهر أما نحن فلن يعود ابننا.

اعتقدت أن الأمور ستختلف بعدما مَثُل المجرم أمام العداله. وأعتقد أن هذا هو ما يعتقده الناس عندما يتحدثون عن "حسم القضية" فنظن أنه إن وجدنا من نلقي عليه اللوم لشعرنا بالراحه. كثيرون يعتقدون أنه لو استطعنا إيجاد منطق لأمر أو إن نال الجاني جزائه، فستزول آلامنا. وقد رأينا حكايات عديدة عن أناس يبحثون عن تلك الراحة والقصاص وقد رأيتهم في البرامج يطالبون بموت المجرم كما لو كان موته سيساعدهم بطريقة ما.

لا شك أنني غاضب من السائق، ولكني غاضب من ميشيل أيضاً، فقد اتخذ قرارات خاطئة في تلك الليلة، مما عرض حياته للخطر. شعرت بهذا الغضب حتى أتمكن من التكيف مع مشاعري، ولكني لم أشعر بالراحة حتى بعد حصول ذلك السائق على العقوبه. كل ما وجدته هو تلك الفجوة الكبيرة في داخلي، ولا يمكن أن يسدها شئ.

وبعد عدة أسابيع، قفزت إلى ذهني فكرة الغفران للسائق، حتى أحصل على الراحة التي أريدها. فالغفران أمر يختلف تماماً عن مسألة إزالة مسئولية الشخص عن الحدث الذي ارتكبه، فما زال السائق مسئولاً عن موت ميشيل. ولكن عليّ أن أغفر له قبل أن أدع الحدث وشأنه، فلا يمكن لأي مقدار من العقوبة أن يعادل إحساسي بالغضب. يجب أن أرغب في الغفران، وهذه العملية لا تتعلق بالسائق ولكنها تتعلق بي. يجب أن أمر بتلك العملية، ويجب أن أتغير بغض النظر عما فعله.

كان طريق الغفران طويل ومؤلم، وكان عليّ أن أغفر لأكثر من شخص، كان يجب أن أغفر لميشيل ولله (الذي سمح بحدوث

هذا) ولنفسي. ولا شك أن عدم قدرتي علىالغفران لنفسي كانت أصعب شئ، فقد كانت هناك أوقات كثيرة في حياتي قمت بتوصيل ميشيل فيها إلى أماكن عديدة حين كنت أنا نفسي تحت تأثير الكحوليات. ولكن هذا هو مفتاح الغفران أن أغفر لنفسي، فقد كان غضبي على الآخرين محاولة مني للهروب من غفراني لنفسي، فألقيت بخطأي على الآخرين؛ السائق والله وميشيل حتى لا اعترف بالخطأ الذي ارتكبته. ولم يحدث هناك تغييرإلى أن تمكنت من رؤية الجزء الذي أخطأت فيه.

وهذا ما تعلمته: أن الراحة التي نسعى إليها تأتي من الغفران، وتلك الراحة قريبة منا بسبب قوة الغفران التي في داخلنا.

تعلم والد ميشيل أكثر الدروس ألماً لأي أب، ولكنه الدرس الذي يجب أن يتعلمه كل منا، مهما كان موقفنا من الحياة، هو أنه إن لم يكن هناك غفران في قلوبنا نحو هؤلاء الذين أسأوا إلينا فلن نجد السلام مهما كان الحق الذي نطالب به.

يصعُب انتشار هذه الفكرة في مجتمع يركز اهتمامه على أفكار الانتقام، فلم تعد أحكام المحكمة كافية إذ يرغب الناس في القيام بدور شخصي لمجازاة الشخص الذي أرتكب ضدهم الحدث. وتعطي العديد من الولايات في أمريكا الحق لأسر ضحايا القاتل لحضور جلسة الإعدام. إلا ان ذلك لا يعطي هذه الأسر السلام الذي تبغيه أبدا. فرغبتهم في رؤية نفس الشخص الذي آذاهم يعاني بنفس الدرجة مما فعله بهم، لا تشبع. وبدلاً من شفاء جروحهم، فان رغبتهم في الانتقام تتركهم مشوشين ومليئين سخطاً.

أن الغفران ليس التغاضي عن الخطأ، ففي بعض الحالات يكون "الغفران والنسيان" ليس فقط مستحيلاً وحسب ولكنه قد يكون شئ غير أخلاقي. فكيف يمكن لأي شخص أن ينسى ابنه؟ إن مشاعر الألم والغضب لابد منها وقد تكون ضرورية أيضاً ولكن يجب أن تنتهي هذه المشاعر بالاشتياق إلى المصالحه.

.6

الغفران حين تكون المصالحة مستحيلة

قد يكون رفض المسامحة أسوء بكثير من القتل، لأن القتل قد يكون بدافع لحظات من سعير الغضب، بينما المسامحة هي اختيار بارد ومترويّ من القلب.
جورج ماكدونالد

عندما اختطفت ابنة ماريتا جيكر البالغة سبع سنوات من خيمتها أثناء رحلة في مونتانا كان رد فعلها الأول هو الغضب:

> كنت مليئة بالكراهية ورغبة عارمة في الانتقام، فحتى لو عادت سوسي حية مرة أخرى وبحالة جيدة فقد أقتل الرجل بسبب ما فعله بأسرتي: هذا ما قلته لزوجي وما كنت أعنيه فعلاً بكل جزء من كياني.

وأدركت ماريتا سريعاً أنه لا يمكن لأي مقدار من الغضب أن يعيد لها ابنتها، فلم تكن مستعدة لأن تغفر لخاطف ابنتها ولكنها ظلت تخبر نفسها فترة طويلة أنها لو غفرت له فهذا معناه خيانة لابنتها وصفح عن أفعال الخاطف. ولكن في أعماقها الداخلية شعرت بأن غفرانها له هو الطريق الوحيد لكي تتوافق مع فقدها لابنتها.

بدأت تصلي بجدية لا من أجل عودة ابنتها سالمة فحسب ولكن أيضاً من أجل الخاطف، وطوال الأسابيع والشهور التي تلت الاختطاف أصبحت صلواتها لأجل عودة سوسي أصعب وأصعب، ولكن الغريب أن صلواتها للخاطف أصبحت أسهل وأكثر جدية. فمجرد كان عليها أن تجد الشخص الذي أخذ طفلتها المحبوبه. وحتى انها شعرت برغبة عارمة في التحدث معه وجهاً لوجه.

وفي أحد الليالي بعد مضى عام على اختطاف ابنتها تلقت ماريتا مكالمة تليفونية، وكان صاحب تلك المكالمة هو المختطف، وشعرت ماريتا بالخوف فقد

كان صوته واثق من نفسه وساخر ولكنها فوجئت بمشاعر الشفقة الفعلية التي ملأتها تجاه هذا الرجل، ولاحظت أنها هدأت وأنه هو أيضاً يشعر بالهدوء، وتحدثا معاً لمدة ساعة.

لحسن الحظ استطاعت مارييتا أن تسجل المكالمة، وعلى الرغم من مضي شهور على تعقب مكتب التحقيقات الفيدرالية له وقبضهم عليه إلا أنها منذ تلك اللحظة علمت أن سوسي لن ترجع البيت مرة أخرى، فقد عثر المحققون على عظام ظهر طفلة صغيرة بين متعلقات المختطف.

حكمت الولاية عليه بعقوبة الإعدام إلا أن مارييتا لم تحضر تنفيذ الحكم لأنها لم تبغ الانتقام، وكتبت: "عندها تعلمت أن العدالة لا يجب أن تكون مجرد عقاب بل مصالحة" واقترحت أن يحصل قاتل سوسي على عقوبة بديلة بالسجن مدى الحياة مع استشارة طبيب نفسي، إلا أن ذلك الشاب المعذب أقدم على الانتحار ولكنها لم تندم أبداً على عرضها بتقديم المساعدة له، ولم تنته جهودها لفعل السلام، واليوم هي جزء من مجموعة تعمل للمصالحة بين القتلة وعائلات الضحايا، وكان ذلك جزء من شفاءها وشفاء الآخرين.

تظهر لنا تجربة مارييتا أن كل القصص لا تنتهي نهاية سعيدة. فحتى عندما نتمكن من مواجهة الشخص الذي يجب أن نغفر له قد لا يشعر بالندم على ما فعله، وفي بعض الأحيان قد لا يتم العثور على القاتل أو شريك الحياة الذي هرب، فهل يكون الغفران في هذه الحالات ممكناً؟

تخلص دانيل كولمان من حياته لأنه لم يستطع التعايش مع فكرة مقتل أخته فرانسيز، إلا أن تلك المأساة المزدوجة غيرت حياة الأم آن، فاليوم تقدم آن المشورة للرجال المحكوم عليهم بالإعدام. وبدأ عملها عندما تقابلت لأول مرة مع باربرا لويس وهي سيدة حُكم على ابنها بالإعدام، وبعد زيارة باربرا بدأتا معاً في زيارة الحالات المشابهة:

> هكذا تقابلت مع بيلي، فلم يكن هناك من يزوره، وكان وحيداً للغاية، وبكيت عندما فكرت في أنه محكوم عليه بالإعدام، ورأيت كيف جعلوه واقفاً على حبل المشنقة في وسط العواصف على الأقل لمدة خمس عشرة دقيقة انتظاراً لوصول الشهود. وبعدما تم إعدامه أعتقدت أنه لا يمكنني الاستمرار في هذا الأمر.

ثم تعرفت على صبي صغير يدعى مرقس، كان أبيه قد حُكم عليه بالإعدام أيضاً، ولم يكن له أم وفقد أختيه أيضاً، وكان يعاني من الكوابيس لأنه على وشك أن يفقد والده أيضاً.

تعلمت أن كراهية شخص لن تعيد إلي ابنتي، وفي ذلك الوقت لم أكن أعلم إن كنت سأجد الشخص الذي قتلها أم لا، ولكن يجب أن يجد المرء الشفاء بطريقة ما. وقد وجدته في مساعدة كل باربرا ومرقس في هذا العالم، لأن مساعدتهم تمنحني مزيداً من الشفاء أكثر مما أتخيل.

فقدت جنيفر -وهي أحدى معارفي- خطيبها الذي تركها قبل عشرة أيام من موعد زفافهما ولم تره مرة أخرى. ظل كلاهما مخطوبين لأكثر من عام، وعلى الرغم من أن علاقتهما عانت من اضطرابات من وقت لآخر، إلا أنها كانت واثقة من أنه سيأتي الوقت الذي ستنجح فيه علاقتهما، فقد احبته بشدة، وكانت متحمسة للزواج منه. كانت جنيفر قد تخرجت من كلية التمريض، وشارفت على الانتهاء من إعداد فستان الزفاف تقريباً، عندما تحطم كل شئ.

أعلن لي خطيبي أنه لم يكن أميناً معي، وأن هناك أشياء من ماضيه ما زالت تعوق زواجنا، والأسوأ أنه أراد أن يهرب من كل شئ بدلاً من مواجهة ماضيه. وكنت محطمة، وبكيت لأيام عديدة ولمت نفسي على عدم أمانته وشعرت بالمرارة الشديدة.

وبعد مضي ثلاثين عاماً ما زالت جينفر بلا زواج، ولكنها لم تعد تشعر بالمرارة، وعلى الرغم من أنها غفرت له بالكامل ومن كل قلبها إلا أنها لم تخبره. وعلى الرغم من أنها في بعض الأحيان تشعر بالألم نتيجة للزواج الذي لم يتم وعلى الحب الذي ضاع، إلا أنها وجدت الشبع الحقيقي في مساعدتها لكبار السن والمرضى والحوامل والأطفال المعاقين وفي خدمتهم. يعلم عدد قليل جداً من أصدقائها ماضيها، ولكنها مشغولة جداً ولا تملك في قلبها أي شفقة على الذات:

يمكنني أن أفعل أشياء لا يمكن للزوجة والأم المشغولة أن تفعلها لأني غير مرتبطة، فيمكنني أن أقدم نفسي أينما كانت هناك حاجة لي في أي مكان، وقد راعيت وأحببت الكثير من الأطفال أكثر مما أتخيل.

تركت جولي وأطفالها مجتمع برودهوف وزوجها بعدما واجهت زوجها بتحرشه بابنتهما. ولكنها لا زالت تحبه وترغب في أن يتمكنا من استرداد علاقتهما معاً مرة أخرى بعيداً عن المجتمع على الرغم من صدمتها فيما فعله، وللأسف لم تنجح الأمور بهذا الأسلوب:

> كنت منهارة وعلى مشارف اليأس، فقد أصبح زوجي شخص غريب عني، ولم أتمكن فيما بعد من الحياة معه وتحولت الحياة إلى جحيم، فقد قضينا عاماً بعيداً عن مجتمعنا، آملين أن ننقذ زواجنا وأسرتنا ولكن بلا فائدة، لقد فقدت كل شئ.
>
> تركته وعدت إلى برودهوف، غاضبة ومتألمة وكارهة ورافضة ويائسة وغاضبة للغاية ولا يمكن لكل تلك القائمة السابقة من الصفات أن تعبر عما شعرت به، وأردت أن أغفر، ولكني من وقت إلى آخر كنت أميل للانتقام، وفي كل مرة أفكر فيها في زوجته الجديدة (فقد طلقني وتزوج مرة أخرى) تشتعل مشاعري بالغضب تجاهه. لم يكن صراعاً سهلاً، وما زال مستمراً عندما أرى آثار هذا الانفصال على أولادنا الخمس.
>
> كانت معركتي هي في رغبتي في الغفران، فعلاً أريد أن أغفر له، فقد علمت أن هذه هي مسئوليتي، ولكن كيف يمكنني أن أغفر وهو لا يبدي أي ندم؟ وما التعبير العملي لغفراني؟
>
> لم أرغب في التغاضي عما فعله بأي طريقة، وقد أخبرته أنه لا يمكنني أن أسمح لأولادي أن يظلوا معه فيما بعد، ولكني قررت أن الشئ البناء الذي يمكنني أن أفعله هو قبول الطلاق.
>
> ولم يكن الغفران أمر يحدث مرة واحدة منذ حدوث الطلاق، إذ كان يجب أن أؤكد على غفراني مرة ومرات، وفي بعض الأحيان أشك في أنني غفرت له وأصارع مع هذا الأمر، ولكن أعلم أن كل الأخطاء التي أرتكبها زوجي في حقي لا يمكن أن تدمرني.

توضح قصة جولي نقطة هامة: ألا وهي أنه رغم إن زوجها السابق لم يُظهر أي شعور بالندم إلا أنها ما زالت تغفر له، وإن لم تفعل فستظل مقيدة بمشاعر المرارة نحوه، وسيستمر في التأثير على أفكارها ومشاعرها، وستظل مجروحة بما فعله لها ولأولادها طوال الحياة. ولكن إن سمحت لمشاعر الغضب

والكراهية بالتسلط عليها فلن تجد الطاقة لكي تحب أطفالها وتتقدم للأمام لأن مشاعر المرارة تدمر وتهدم.

.7

الغفران في الحياة اليومية

عندما تطلعت إلى وجه
والدي المتوفى
لآخر مرة
قالت أمي بلا
دموع وبلا ابتسامات
ولكن بلطف
"عمت مساءً ويلي لي. سأراك
في الصباح"
وعندها علمت أن الشفاء
لكل جروحنا
هو الغفران
الذي يسمح بوعد
رجوعنا
في النهاية

أليس واكر

قد لا يواجه كثيرون منا بضرورة الغفران لمغتصب أو قاتل، ولكن نواجه جميعاً يومياً حاجتنا إلى الغفران لشريك أو طفل أو صديق أو زميل فهذا يحدث عشرات المرات في اليوم الواحد، وهذه العملية هامة أيضاً.

يظهر وليم بليك في قصيدته "شجرة مسمومة" كيف أن أصغر ضغينة يمكن أن تترعرع وتحمل ثمار مميتة.

غضبت من أصدقائي
وأخبرتهم بغضبي، وانتهى الأمر.
غضبت من عدوي

ولم أخبره، فكبر الغضب

وغذيته بالخوف
صباحاً ومساءً بدموعي
وراعيته بالابتسامات
وبالخداع الناعم.

فنما نهاراً وليلاً
حتى أثمر تفاحة لامعة
ورآها عدوي تلمع
وعلم أنها لي.

في حديقتي دخل وسرقها
عندما أرخى الليل سدوله
في الصباح أرى
عدوي متنعماً تحت الشجرة

أن الضغينة الصغيرة في الحياة اليومية هي بذار شجرة بليك، فلو سقطت تلك البذور في قلوب خصبة، ستنمو وإذا كان هناك من يرعاها ويغذيها فستكون لها حياتها الخاصة، ربما تكون صغيرة وتبدو كما لو كانت تافهة يصعب على المرء أن يراها في البداية ولكن بلا شك يجب التغلب عليها. يظهر لنا بليك في أول سطرين كيف أنه من السهل حدوث ذلك إذ يجب أن نواجه شعورنا بالغضب في الحال ونقلعه من جذوره قبل أن ينمو.

كان عليّ تعلم ألا أحمل ضغينة في حياتي، فقد كانت طفولتي سعيدة في معظمها ولكن كان لي نصيبي أيضاً في الخبرات السيئة. قد كنت طفلاً مريضاً حيث أخبر الأطباء والدتي بعدما وُلدت بفترة قصيرة أنني أعاني من "ماء على المخ" ولن أتمكن من السير على قدمي أبداً. وعلى الرغم من أنه لم تثبت صحة ذلك فبدأت المشي عند سن الثانية والنصف، إلا أن هذا تسبب في ألم كبير لوالديَ وأثر علي أيضاً.

كنت وحيداً، فقد كان هناك سبعة أطفال في عائلتنا وكنت الصبي الوحيد، بالإضافة إلى أن والدي الذي رحل لمدة ثلاثة سنوات في أول خمس سنوات في عمري، لهذا كنت أتوق للأصدقاء.

وعندما بلغت السادسة، كان يجب أن أزيل ورم كبير من رجلي، وقد كانت هذه أول عملية من عمليات كثيرة أجريتها خلال الثلاثة عقود التالية، واستمرت العملية لمدة ساعتين، وكان هناك خطر الإصابة بأي ميكروب إذ لم تكن المضادات الحيوية قد ظهرت بعد. كنا نعيش في باراجواي وظلت رجلي معلقة لفترة طويلة، وبعدما شُفي الجرح الذي في رجلي، عدت إلى منزلي سيراً على الأقدام، ولم يقدم لي أحد عكازين، وما زلت أرى وجه والدي المصدوم عندما دخلت إلى المنزل بعرجي، على الرغم من أنه لم ينطق بكلمة.
كان هذا أمر صعب على والدي، إذ لم أسمعهما يتحدثان عن مرضي أمام الآخرين، ولم يسمحوا لنا بذلك أيضاً، وكانا يعانيان من صراع في المشاعر عندما يشعران بتعرض أي منا نحن الأطفال لسوء معاملة من المدرسين في المدرسة أو من أي شخص آخر مثلهما في ذلك مثل أي أبوين. ولكنهما أصرا أن السبيل الوحيد للتغلب على تلك الأمور الصغيرة التي تحدث في الحياة هو الغفران.

وعندما بلغت الرابعة عشر انتقلنا إلى الولايات المتحدة، وكان التغيير من مدرسة في قرية بأمريكا الجنوبية إلى مدرسة ثانوية عامة في نيويورك ضخماً، وكانت اللغة الإنجليزية عائقاً بالنسبة لي. ولأني كنت خجولاً لذلك شعرت بأني عديم اللباقة، فالجميع يريدون التعرف على أصدقاء ولا أحد يريد أن يكون وحيداً، ولكني كنت غير مبالٍ. نعم أردت من كل قلبي أن أكون مقبولاً، لذلك خرجت عن أسلوبي المعتاد لأرضي زملائي في الفصل، وفي البداية كنت مرفوضاً وبصفة خاصة من صبي معروف عنه أنه متميز، ثم بدأت أحارب من جديد، فقد كان كل أصدقائي مهاجرين مثلي فبدأنا نسخر منه بلا رحمة، وكنا نتحدث بالألمانية فيما بيننا لأننا نعلم أنه لا يفهم كلمة واحدة منها. وقادتنا العداوة إلى مزيد من العداوة.

وفي العشرينات من عمري واجهت مشاعر الرفض مرة أخرى، فتعمقت علاقتي بشابة وخطبتها ولكن فجأة وفي أحد الأيام أدارت ظهرها لي. صارعت في داخلي لأغفر لها، ولأغفر لنفسي أيضاً، وبصفة خاصة لأنه لم تكن لدي أية فكرة عن سبب إنهاءها لهذه العلاقة (أقنعت نفسي أن الأمور ساءت بيننا بسببي، لأني شعرت بأنني غير مناسب لها على الإطلاق) وبعد عدة سنوات تحطمت آمالي للمرة الثانية عندما أنهت شابة أخرى علاقتها بي بعد عدة شهور، وانهار العالم من حولي عندما حاولت أن أفهم سبب حدوث ذلك. ما الخطأ الذي ارتكبته؟

واستغرق الأمر مني وقت طويل لكي أتغلب على جرحي، وأعيد بناء ثقتي في نفسي، ولكن أبي أكد لي أنه في الوقت المناسب سأعثر على الشخص المناسب وقد ثبت صحة ما قاله عندما وجدتُ زوجتي فيرينا بعد عدة سنوات.

من السهل أن نغفر للغريب عن أن نغفر لشخص نعرفه ونثق فيه، ولهذا من الصعب أن نتغلب على خيانة الأصدقاء أو الزملاء القريبين منا، فهم يعرفون أفكارنا ونقاط ضعفنا، ونقاط القوة فينا، وعندما ينقلبون علينا نضطرب.

مر بيتر، وهو صديق لي من فيرجينيا، بهذه الخبرة:

"كان عليَ إنهاء بعض الأمور مع شريكي الذي شاركته لمدة عشر سنوات قبل الانتقال
لولاية أخرى وترك عملي، وقد تعقد الأمر بسبب حقيقة أنه وزوجته كانا قريبين مني جداً، فقد كنا أصدقاء على مدار الخمس عشر سنة الماضية.

ولم ينصحني أحد بالأسلوب المثالي لعمل تسوية عادلة لأصول مشروعنا التجاري، فلم أكن أبغي أن أكون عادل وحسب بل وكريم أيضاً. فلم أبغ أن يكون هناك شئ ما عالق في ضميري. فأتيت بتقسيم يعطني نصف المكاسب حتى اليوم الذي تركت فيه المشروع وتركت لهم النصف الآخر وكان العمل في نمو مع وجود السمعة الحسنة للمشروع التي تمكنه من الاستمرار، بيد ان كليهما رأى الأمر كله بطريقة مختلفة وتوقفا عن التحدث معي من اليوم الذي أخطرتهما فيه بذلك. ولسوء الحظ كنت قد أخطرتهما بذلك قبل شهرين من التحويل الذي اتسم بأنه طويل للغاية وملئ بكلمات وعبارات الغضب.

ولم نكن قد وقعنا اتفاقاً حتى اللحظة التي تركتُ فيها الولاية، فقد أتى كل منا بمحامي مما عكر المياه بيننا. وقد أردت أن يكون هناك مصدر خارجي ليحكم في العرض، ولكنهما فضلا هذه المحكمة وطلبا النصيحة من محاسب عملنا معه لمدة سبع سنوات، ولست واثق مما حدث، ولكنه فقد موضوعيته سريعاً وبدأ يعمل ضدي.

تطلب الأمر كثير من العروض والعروض المضادة حتى نصل إلى اتفاق، وأصرا على الرغم من كل ذلك أنهما سيدفعان لي في شهر ديسمبر، إذ لن يتمكنا من إرسال الشيك بالبريد لي قبل 31 ديسمبر، وفيما بعد علمت أن هذا التأخير يجعلني لا استحق سوى نصف مكاسبنا عن السنة كلها وعلى الرغم من ذلك فلم أتلق نصيبي حتى شهر يونيو، وانتهى بي الأمر وقد دفعت مبلغ 50000 دولار للضرائب. كنت

غاضب للغاية ولم أتمكن من النوم في الأيام التالية، فقد شعرت بأن أصدقائي والمحاسب خانوني، وشعرت بأنهم تآمروا عليّ ليطردوني.

كان عليّ أن أبذل مجهود كبير حتى أغفر لهم ولكني وجدت القوة لأفعل ذلك، ثم أدركت أنني بحاجة إلى الكتابة إليهما لأطلب منهما الغفران أيضاً، وشعرت براحة كبيرة عندما أغلقت الظرف ووضعت الخطاب في البريد. لقد كنت بحاجة إلى الحرية من مشاعر الغضب بغض النظر عن ردهما.

وبعد مضي شهر اتصل بي صديق ممن نصحني بضرورة مسامحتهما ليسألني إذا كنت قد تمكنت من فعل هذا أم لا، فأخبرته بما فعلت فأجاب: "لقد أحسست بأنك سامحته إذ أنني قد لاحظت عليه كذلك وكأن حملاً ثقيلاً أزيل من عليه فعلاً."

لسوء الحظ أن خيانة الأصدقاء أو الزملاء أمر معروف في كل الدوائر، كان أبي معروفاً بقدرته على التشجيع والنصح بصفته راعي في مجتمع برودهوف، فأينما ذهب كان الناس يودون التحدث معه. وكان هناك كثيرون لديهم أمور يريدون أن يبعدوا حملها عن صدرهم وهناك آخرين كانوا بحاجة إلى من يستمع إليهم، ولكن نفس تلك الأشياء التي جعلت بعض الناس يحبونه كانت تلقي بذار الحسد في قلوب الآخرين.

عانى أبي من مشكلات في كليته في الفترة التي وُلدت فيها، وتطورت هذه المشكلات بتقدمه في العمر للأسوأ، فالحياة في بارجواي كانت صعبة، إذ انتشرت الأمراض وأدت الصراعات المنتشرة في مجتمعنا إلى جعل القدرة على البقاء أصعب. ثقلت على أبي أحمال مسئولية القيادة كما لم يحدث من قبل، فبعد عدة أسابيع من الضعف الجسدي المستمر أخبره الأطباء أنه لم يعد لديه سوى أربعون ساعة فقط ليعيشها، فاستدعى الكنيسة كلها لتظل بجواره على فراش المرض، وشجعهم حتى يظلوا أقوياء وثابتين أمام تلك الظروف الصعبة التي يعيشون فيها، وسلم مسئولياته كقائد إلى ثلاثة رجال، وكان أحدهما هو أخو زوجته.

تماثل أبي للشفاء وتغيرت الأمور وبدلاً من أن يسلمه الرجال الثلاثة القيادة مرة أخرى أخبروه أن أيام قيادته انتهت، فقد أعلن الطبيب أنه ضعيف للغاية ولا يستطيع تحمل متطلبات العمل، ولكنهم قالوا أن السبب الرئيسي وراء ذلك هو "عدم الاستقرار العاطفي" الذي أظهره في أوج مرضه عندما حلم بأحلام غريبة وهلوسات.

قرر أبي ألا يحارب هذا القرار وبدأ العمل في إرساليتنا الصغيرة في المدرسة والمستشفى لأنه لم يكن من القادة المستعدين ببساطة لفرض إرادته على الآخرين.

على الرغم من أن والديّ لم يدركا هذا الأمر في وقته إلا أن هذا التغير في الأحداث لم يكن صدفة، إذ أنه كان محسوباً عمداً في محاولة لتنحيته عن عمله. في الواقع اقترح الطبيب أن يقضي والدي مزيد من الأسابيع في راحة ولكن القادة الجدد غيروا كلماته لخدمة أهدافهم. (فبعد مضي ثلاثون عاماً أخرى اكتشف طبيب آخر السبب الحقيقي وراء الهلوسات وشرحه إذ أنها كانت آثار جانبية للعلاج الذي كان يستخدمه)، ولم نشعر أبداً نحن أطفاله بأي مرارة من جانبه.

ولم يمر وقت طويل على ظهور مشكلات جديدة في مجتمعنا. التحق والدي بمجموعة صغيرة من الأعضاء الآخرين في مجتمعنا محاولين أن يرفعوا أصواتهم بالتحذير من أن الشفقة الحقيقية تحولت إلى مجموعة من النظم والقواعد ولكن أساء الجميع فهمهم، فتم استبعاد كثيرون منهم بتهمة أنهم يحاولون عمل انقسام في الكنيسة.

وعلى الرغم من أن والدي كان مزارع ماهراً إلا أنه لم يستطع الحصول على عمل من أي نوع.

كان المهاجرين الألمان البارجوايين الذين يتعاطفون مع النازي ينظرون إليه بشك، وكان البريطانيين والأمريكان يخشونه لأنه ألماني الجنسية. وأخيراً وجد عمل كمدير مزرعة في مستعمرة للجذام.

في أوائل الأربعينات لم يكن هناك علاج للبرص لهذا كان عملاً خطيراً للغاية وحذره الجميع من العدوى وأخبره أكثر من طبيب أنه عمله قد يحرمه من رؤية أولاده وزوجته مرة أخرى. من الصعب وصف عذاب المعاناة التي مر بها.

لن أنس مدى فرحتي في اليوم الذي رجع فيه والدي من مستعمرة الجذام، فقد قفزت على كتفيه عندما دخل البيت وقلت: "أبي عاد" لكل من يمر بنا، إلا أن الجميع قابلونا بنظرات جامدة.

ومضت سنوات قبل أن أكتشف السبب الحقيقي وراء رحيل أبي فقد شعر أن القادة في مجتمعنا أصبحوا باردين القلب ومستبدين، وعندما طالبهم بأن يكونوا

متفهمين ورحماء اتهموه بأنه "عاطفي" ومع ذلك لم يشعر أبي بأية مرارة تجاههم.

كنت في العشرينات من عمري عندما سمعت قصص من أصدقاء أبي القدماء، وكنت مرتعباً، وتساءلت عما سيكون رد فعلي عندما يتخلى عني أصدقائي وزملائي بدون سبب؟

وفي عام 1980 أدركت ما حدث، عندما طلب مني مجتمعي فجأة أن أتنحى عن دوري كقائد وهي الوظيفة التي عملت بها لمدة ما يقرب من عشر سنوات. لا أعرف السبب حتى الآن ولكن لا شك في أن الغيرة التي حدثت مع والدي منذ أربعين عاماً كانت جزء من السبب. هذه المرة، انقلب أصدقائي وزملائي ضدي. هؤلاء الذين شجعوني ووقفوا بجانبي، كانوا هم أنفسهم الذين يبحثون عن أخطاء في كل ما فعلته.

نتيجة لشعوري بالغضب والثورة، كنت مجرباً بشن حرباً عليهم. ولكن هذا التحول حدث في وقت سيئ بالنسبة لي إذ توفت والدتي قبل عدة أسابيع بمرض السرطان وفي ذلك الوقت شعرت أن الكنيسة تحتاجني أكثر من أي وقت مضى. ومرة أخرى أردت تحسين ما أقوم به وأستعيد مكانتي "الصحيحة" ولكن أبي رفض أن يدعمني في شن حرب مضادة على المجتمع، وذكرني أنه في النهاية نحن لسنا مسئولين عما يفعله الآخرون بنا ولكننا مسئولون فقط عما نفعله بهم.

وعندما تحدثنا أدركت أنني لم أكن نقياً وبلا لوم كما كنت أعتقد، ففي أعماقي كنت أحمل ضغينة تجاه أناس معينين في الكنيسة، وكان يجب أن أطلب منهم الغفران بدلا من تبرير نفسي. وبمجرد أن فعلت هذا اتخذ صراعي معهم معناً جديداً. شعرت بأن هناك سد انفجر في مكان ما في أعماقي. كنت أشعر بألم الكبرياء ولكني الآن أستطيع أن أسأل نفسي: ما فائدة ذلك على المدى الطويل؟

ذهبت وزوجتي إلى أناس شعرنا بأننا آذيناهم في الماضي وطلبنا منهم الغفران بتصميم جديد على تصحيح مسار الأشياء وتحمل عواقب الصراعات الموجودة، وشعرنا بأن حمل قد أنزاح عن قلوبنا حين توجهنا من شخص إلى آخر طلباً للغفران.

كانت هذه سنة مؤلمة جداً لي ولزوجتي، ولكنها كانت سنة هامة أيضاً لأنها أهلتنا للمسئوليات التي نحملها الآن إذ ملأتنا بمشاعر تحنن نحو الآخرين، وعلمتنا دروس لن ننساها أبداً. أولاً، لا يهم إن أساء الناس فهمك أو اتهموك بأنك ظالم ولكن المهم هو ألا تسئ أنت فهم الآخرين أو تتهمهم بأنهم ظالمون. ثانياً، لا

يمكن أن نغير قدرتنا على الغفران بالاتكال على ذواتنا، على الرغم من أن قرار الغفران يجب أن ينبع من داخلنا. فالقدرة على الغفران لا تأتي منا ولكن من معرفتنا بأن هناك من غفر لنا.

مر جيم وكارولين ويكس بأوقات صعبة في نفس السنة، فقد وجدا أيضاً أن الغفران هو الطريق الوحيد للمصالحة، وتكتب كارولين قائلة:

في عام 1980 كان قد مر على إقامتنا في مجتمع برودرهوف خمس سنوات، وأردنا أن نكون أعضاء عاملين في المجتمع، ولكن هذا كان وقت تشويش وشك. وعندما لم نستطع فهم الأمور، تضايقنا بسهولة وانتهى بنا الأمر بأن تنحينا جانباً.

وأخيراً قررنا طلب إجازة لمدة عدة أسابيع من المجتمع حتى نتمكن من إنجاح الأمور بطريقتنا ونجد السلام، ولسوء الحظ أساء الناس فهم طلبنا، وانتهى بنا الأمر كما لو كنا قد طلبنا ترك المجتمع كلياً. فلن أنس أبداً مغادرتنا. أتى بعض الأصدقاء لتوديعنا ولكني لم أشعر بأي شئ سوى الفراغ.

فمنذ عدة أسابيع فقط كنا سنكون أعضاء دائمين في مجتمع برودرهوف، والآن تحطمت كل أحلامنا وقد ضحينا بكل شئ لكي ننضم لهذا الأسلوب من الحياة، فأتينا إلى هذا المكان ومعنا بعض هدايا زواجنا ولم نكن قد فتحناها بعد، وأعطينا المجتمع سيارتنا وكل ما نملك.

حضّر لنا مجتمع برودهوف عربة لشحن الأثاث وسائق ليحمله معنا إلى منزلنا الجديد في بالتيمور ولكننا ما زلنا نصارع مع مشاعر الهجر والرفض. لقد شعرنا بفشل ذريع، وحاولنا التخلص من ذكرياتنا على الرغم من وجود الكثير من الأوقات السعيدة التي قضيناها وألقينا بأنفسنا في تلك الحياة الجديدة.

واستغرق منا الأمر ثمان سنوات حتى نستعيد قدراتنا المالية السليمة وذلك بمساعدة كبيرة من العائلة والأصدقاء، ومع الوقت كان علينا أن نرضى بنصيبنا، فتمتع كل منا بوظيفة آمنة والتحق أولادنا بمدارس جيدة مع كثير من أصدقائهم وكان لدينا سنوات قليلة لإنهاء الديون. ولكن في الداخل كنا نشعر بالفراغ والوحدة، وكنا نعلم بأن هناك شئ ما ينقصنا وتحدثنا مبدئياً عن محاولة العودة إلى برودرهوف ولكن بعد عدة سنوات تخلينا عن هذا الأمل بالكامل، ولم ندرك أننا بنينا جدار ضخم من المرارة في قلوبنا.

في أحد الأيام بعد مضي ما يقرب من عشرين عاماً على رحيلنا رن جرس التليفون في الوقت الذي نزل فيه أطفالنا من أتوبيس المدرسة. كانا زوجين من مجتمع برودرهوف يزوران المدينة ويرغبان في رؤيتنا. في البداية كنا متحفظين ولكن قمنا بدعوتهما على العشاء. وعلى الرغم من أننا لم نسوّي جميع مشاعرنا، فعرفنا أننا نشعر بجرح عميق في داخلنا. ورحل الزوجين ولم نر أي شخص من برودرهوف مرة أخرى إلا بعد مضي عدة شهور عندما زرناها مجرد "في عطلة نهاية الأسبوع".

وقررنا العودة مرة أخرى في نهاية الأسبوع التالي وقد دُعينا إلى اجتماع خاص بالأعضاء لشرح موقفنا ولتوضيحه حتى يمكننا أن نكون أصدقاء لهم مرة أخرى، وبدأ الاجتماع بشكل جيد ولكن في نهايته صُدمنا من أن الشخص الذي وثقنا فيه بشدة هو نفسه الشخص الذي لم يفهمنا جيداً. وشعرنا بالألم نتيجة لهذا، وبعد الاجتماع شعرنا بأنه ما زالت هناك رغبة في داخلنا لنكون أصدقاء مع المجتمع ولكن ليس أكثر من ذلك.

ولك أن تتخيل دهشتنا في صباح اليوم التالي عندما قاد هذا الرجل وزوجته سيارتهما لمدة ساعتين ليرونا وليطلبوا منا الغفران، وعندما سمعنا أنهما أتيا، لم نرغب في رؤيتهما في البداية فقد كنا خائفين مما سنقوله، ثم وافقنا على التحدث معهما. ولدهشتنا قابلونا بأذرع مفتوحة وعيون تملأها الدموع، وقالوا نحن آسفين ومدا أيديهم للمصافحة، يا لها من لحظة! فبعد كل ما فعلا بنا وبعد عشر سنوات من الكابوس وبعد ما اجتزنا فيه كيف يمكن أن نبدأ من جديد؟ أردنا التراجع ولكن لم نستطع، فامتدت أيدينا لهم وسامحناهما وفي غضون شهور رجعنا مرة أخرى إلى مجتمع برودرهوف.

وبمجرد عودة جيم وكارولين إلى منزلهما لم يمض وقت طويل حتى شعرا أنهما أيضاً ارتكبا أخطاء: فتكتب كارولين:

كان علينا أن نرى الجانب الآخر من القصة أننا كنا عنيدين ومتشبثين برأينا، وكان كبرياؤنا عائق أمام المصالحة.

عادة ما نرى الخلافات من جانب واحد، ففي كبرياؤنا لا نرى إلا أخطاء الآخرين ولا نرى أخطاءنا. وإن لم نتعلم التواضع، لن نسامح ولن يسامحنا أحد.

نعم، هذا مؤلم، ولكنه جزء هام جداً من الحياة. فالغفران يسمح بنسيان الألم حتى لو اعترفنا به إذ يأتي الفرح من المحبة. يكتب م. سكوت باك:

> لا يوجد سبيل للعيش حياة غنية إن لم نرغب في المعاناة بصفة متكررة واختبار مشاعر الإحباط واليأس والخوف والقلق والنقد والرفض. فالحياة التي تفتقر لمثل هذه المشاعر لن تكون عديمة الجدوى لنا فحسب ولكنها ستكون عديمة الجدوى للآخرين أيضاً، فلا يمكننا الحصول على الشفاء إن لم يجرحنا الآخرين.[4]

أن المجتمع الحقيقي الذي يشمل العائلة والأصدقاء والزملاء يطلب منا أن نكشف أنفسنا أمام بعضنا البعض، ويتجه سي أس لويس إلى ما هو أبعد من ذلك فيقول: "معنى أن تحب أن تكون مكشوفاً، فالمكان الوحيد خارج السماء الذي يمكنك أن تكون آمناً فيه من كل الأخطار والمشكلات الناجمة عن المحبة هو الجحيم."[5]

تظهر لنا قصة جيم وكارولين أن الغفران يمكن أن يعيد علاقة الناس ببعضها البعض مرة أخرى، فإن تغلبنا على الأوقات العصيبة يمكننا أن نحيا بمحبة عظيمة، إذ تقوي تلك الأوقات روابط المحبة ولا تضعفها.

---

[4] M. Scott Peck, The Different Drum: Community Making and Peace (New York: Simon & Schuster 1987) 226 – 227

[5] C. S. Lewis, Readings for Meditation and Reflection, ed. By Walter Hooper (New York; HarperCollins, 1996) 130

.8

الغفران في الزواج

يسألني الناس ما نصيحتي لزوجين لديهما مشكلات في علاقاتهما، وعادة ما أجيب: صلوا وأغفروا. وأقول للشباب الذين أتوا من بيئة كثُر فيها العنف: صلوا واغفروا. ومرة أخرى أقول لكل أم تعيش بمفردها دون زوج أو عائلة لتدعمها: صلي وأغفري

الأم تريزا

إن لم يغفر الزوج والزوجة لبعضهما يومياً سيتحول الزواج إلى جحيم وهذا ما رأيته خلال السنوات التي قضيتها في المشورة للمتزوجين، ورأيت أنه يمكن حل أعقد المشكلات بكلمتين بسيطتين ألا وهما: أنا آسف.

قد يكون من الصعب على الشريك أن يطلب من شريكه العفو، إذ يتطلب الموضوع اتضاعاً واعترافاً بالضعف والخطأ. ولكن هذا هو ما يُنجّح الزواج: إذ يعيش كلا الشريكين في اتضاع متبادل مدركين تماماً اعتمادهم الداخلي على بعضهم البعض.

أعتاد ديتريتش بون هوفر - وهو الراعي الألماني المعروف الذي سجنه هتلر في الثلاثينات بسبب معارضته للنظام النازي- أعتاد أن يتحدث مع أعضاء المجتمع المتشارك الصغير الذي كوّنه عن الحاجة إلى "الحياة معاً في التسامح" لأنه بدون المسامحة لا يمكن أن تنجح أي شركة إنسانية وبصفة خاصة الزواج، وكتب مرة يقول: "لا تصرّ على حقوقك، ولا تلومون بعضكم البعض، ولا تحكموا أو تدينوا بعضكم البعض، ولا تتصيّدوا الأخطاء لبعضكم البعض، ولكن أقبلوا بعضكم بعضاً كما أنتم، وسامحوا بعضكم بعضا كل يوم من أعماق قلوبكم.

لم نفتقر أنا وفيرينا طوال فترة زواجنا التي استمرت واحد وثلاثين عاماً إلى فرصة للغفران. فبعدما مضي أسبوع على زفافنا تقابلنا مع أول أزمة في حياتنا. صنعت لي أختي، وهي فنانة، مجموعة جميلة من الأطباق، ودعينا والدي

وأخواتي على العشاء في شقتنا الجديدة وقضيت وفيرينا طول فترة بعد الظهر في إعداد الطعام، وأعددت مائدة الطعام مستخدماً الأطباق التي صنعتها أختي. ووصلت عائلتي وجلسنا لنأكل معاً وفجأة أنهار طرفي المنضدة، فلم أقم بضبط المنضدة جيداً، وغطى الطعام والصحون المكسورة الأرضية، وخرجت زوجتي من الحجرة والدموع تملأ عيناها. ومضت ساعات طويلة قبل أن تتمكن زوجتي من أن تغفر لي فعلتي هذه ولنضحك على تلك الحادثة التي صارت مع الوقت نكتة عائلية معروفة.

مع الوقت أصبح لدينا ثمانية أطفال وكان هناك أسباب كثيرة للخلافات، وفي كل مساء تقوم فيرينا بإعطاء حمام للأطفال وإلباسهم بيجامات نظيفة ثم ينتظروني على الكنبة مع كتبهم المفضلة. وعندما أرجع إلى المنزل من عملي، يرغب الأولاد في اللعب معي وفي بعض الأحيان ينتهي بنا الأمر بقصف بعضنا البعض بالحشائش في الحديقة، وما زالت فيرينا تتذكر الساعات التي قضتها لتزيل بقع الحشيش والطين وبلا أي تذمر!

عانى معظم أطفالنا من الربو وعندما كانوا صغاراً وكثيراً ما أيقظونا طوال الليل تقريباً بسبب كحتهم وأزيز تنفسهم، وهذا كان سبب في كثير من المشكلات بيننا خاصة عندما تذكّرني أنه بإمكاني ترك السرير والذهاب إليهم تماماً مثلها.

كنا نختلف كثيراً حول عملي، إذ كنت أقضي ساعات طويلة في الطرق بسبب عملي كمندوب مبيعات لدار نشر نملكها، ولأن دار النشر كانت تغطي منطقة كبيرة في غرب نيويورك في بافلو وروشستر وسيركوس كنت أقضي ما بين ستة إلى ثمانية ساعات في قيادة السيارة. وفيما بعد أصبحت راعياّ لمجتمعنا الأخوي وكان عليّ الذهاب كثيراً إلى كندا وافريقيا وأوربا، وكثيراً ما كنت أدافع عن سفري إلى تلك المناطق قائلاً أن تلك السفرية "هامة للغاية." هذا التأكيد لم يهدئ من روع زوجتي التي كان عليها إعداد حقائب السفر والتكيف مع جدول أعمالي والبقاء بمفردها مع الأطفال.

ثم يأتي وقت قراءة جريدة *النيويورك تايمز*، فبعد قضاء يوم صعب في المواصلات لا يمكنني متابعة الصحف إلا لدقائق معدودة حين يلعب الأطفال حولي، وقد رأيت أنانيتي فيما بعد.

وكثيراً ما أتساءل كيف كان لزواجنا أن ينجح إن لم نتعلم أن نغفر لبعضنا البعض كل يوم من البداية؟ ينام كثير من الأزواج معاً في نفس الفراش ويشتركون في نفس البيت ولكنهم على بعد أميال داخلياً من بعضهم البعض لأنهم بنوا جدار من الكراهية، قد تكون الحجارة التي بُني بها هذا الجدار صغيرة

للغاية كنسيان عيد الزواج أو سوء فهم أو اجتماع عمل يحدث بصفة طارئة بعد الترتيب لنزهة عائلية معاً تنتظرها الأسرة منذ وقت طويل ولكن الانقسام الناتج الذي تخلقه تلك الأحداث ينتج عنه كارثة.

يمكن انقاذ كثير من الزيجات بالإدراك البسيط بأن الناس غير كاملين، فكثيراً ما يفترض الزوجان أن العلاقة الجيدة خالية من الجدال والاختلافات، ويصابون بالتشويش عندما لا يستطيعون التآلف مع التوقعات غير الواقعية.

فمعنى عدم الكمال الإنساني أننا سنرتكب أخطاء وسنؤلم بعضنا البعض سواء بعلم أو بدون علم، فقد كان الحل الوحيد السليم في حياتي هو أن أجد الغفران سبعين مرة في اليوم الواحد إن لزم الأمر: يكتب سي أس لويس قائلا:

> "كيف يمكن أن نغفر استفزازات الحياة اليومية، وأن نستمر في الغفران للحماة المتسلطة والزوج الآمر والزوجة المتذمرة والابنة الأنانية والابن الجاحد؟ أعتقد أنه عندما نتذكر أين نقف وعندما نعني الكلمات التي ننطق بها في كل ليلة حين نصلي قائلين: "اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا."

تتضح قوّة الغفران من قصة والدي زوجتي، هانز ومارجريت ماير، فقد كان هانز رجلا قوي الإرادة وتسبب عناده في انفصالهما أكثر من مرة بعيداً عن بعضهما البعض، فقد سُجن بعد مضي شهور قليلة على زواجهما في عام 1929 لأنه رفض الالتحاق بالجيش السويسري وذلك لأنه من المتحمسين لمبدأ ضد العسكرية.

وبعد إطلاق سراحه بفترة قصيرة انفصل الزوجان مرة أخرى، فقد اكتشفت مرجريت مجموعة البرودهوف وأرادت الانضمام إليها، ولم يرغب هانز الذي هو عالم اجتماع ديني وله أفكار مختلفة في الحياة المشتركة في الانضمام. كانت مارجريت قد ولدت طفلهما الأول منذ فترة قصيرة وتوسلت إليه الانضمام لهما ولكن هانز لم يقتنع. وبعد مضي عدة شهور اقنعته بالمجئ.

وبعد مضي ثلاثون عاماً وإنجاب أحد عشر طفل انفصلا مرة أخرى، في هذه المرة كانا يعيشان في أمريكا الجنوبية وكان ذلك في عام 1961، وهو وقت للاضطرابات الداخلية العنيفة والصراعات في مجتمعات برودهوف. وأصبح هانز غريبا عن زوجته وعن المجموعة لأنه لم يستطع رؤية أخطاءه ولا مسامحة الآخرين على أخطاءهم في حقه، وانتقلت مارجريت والأطفال إلى

الولايات المتحدة، أما هانز فاستقر في بونيس آيرس وبقى فيها طوال الأحد عشر عاماً التالية.

ولم تكن هناك علامات خارجية على أنه يحمل ضغينة ولكن لم تكن هناك أية علامات أيضاً على الشفاء من كلا الجانبين، وببطء ارتفع حائط المرارة الذي هدد بإبقاءهما بعيداً عن بعضهما للأبد، وعندما تزوجت فيرينا في عام 1966 لم يحضر هانز حفل الزفاف، وبدأ أطفالنا في النمو دون أن يعرفوا جدهم لأمهم.

في عام 1972 توجهتُ إلى بونيس أيرس مع أندرياس أخو فيرينا في محاولة لمصالحة هانز ولكنه لم يبدِ اهتماماً بذلك على الأقل في البداية، وأراد أن يحكي ما يخصه في القصة وأن يعلمنا مرة أخرى بكم المرات التي تعرض فيها للأذى. وفي اليوم الأخير من رحلتنا حدث تغير، إذ أعلن أنه سيزورنا في الولايات المتحدة، وأصر أن زيارته ستستمر لمدة أسبوعين فقط وأكد على حقيقة أنه سيشتري تذكرة عودة، ولكن هذه كانت البداية.

وعندما أتى لزيارتنا خاب ظننا، لأن هانز لم يستطع أن يغفر. فعلنا كل جهدنا لكي نزيل صعوبات الماضي ونعترف بذنبنا في الأحداث التي أدت إلى تلك الغربة الطويلة ولكننا لم نصل لشئ، فمن الناحية الفكرية عرف هانز أن الشئ الوحيد الذي يفصل بيننا وبينه هو عدم قدرته على الغفران، ولكنه لم يستطع أن يرغم نفسه على ذلك.

ثم أتت نقطة التحول، ففي وسط اجتماع المجموعة استجمع عم هانز هيرمان الذي كان على مشارف الموت بسبب إصابته بسرطان في الرئة كل قوته وقام واتجه نحو هانز وربت على صدره قائلاً: "التغيير يجب أن يحدث هنا!" وقد كلفت هذه الكلمات هانز هيرمان جهداً كبيراً لأنه كان يحصل على اوكسجين أضافي من خلال فتحتي الأنف ويتكلم بصعوبة، وتغير هانز بالكامل، فذابت برودته، وقرر أن يغفر ويرجع، وعندما رجع إلى الأرجنتين لينهي بعض شئونه انتقل ليلحق بمارجريت في المجموعة وأثبت أنه ما زال العضو النشط والمكرس مثلما كان منذ عدة عقود مضت.

لم يلمس هانز طوال السنوات التي قضاها بعيداً امرأة أخرى، وأثناء تلك العقود الطويلة صلت مارجريت يومياً من أجل عودة زوجها، وكما هو الحال في كل القصص. لقد تألم كلاهما وأستغرق الأمر وقتا طويلا حتى يستعيدا ثقتهما ببعضهما البعض، ويمكنني أن أشهد أنهما نجحا بصفتي زوج ابنتهما، فهما يعيشان في محبة وفرح مع بعضهما البعض ومع أطفالهم وأطفال أطفالهم حتى ماتت مارجريت منذ ست عشرة عاماً.

لكن إن غفرنا لشخص آذانا فعلاً، أليس من الطبيعي أن نظل متضايقين مما فعلوه؟ هذا هو السؤال الصعب ولكن ربما له علاقة بالصعوبة التي نواجهها فيما يتعلق بفهمنا للعدالة أكثر من الغفران. فالغفران أكثر من مجرد عدالة كما اكتشف هانز ومارجريت، فهو عطية وقد يبدو أمر غير منطقي وغبي بالنسبة لهؤلاء الذين لا يمكنهم قبوله.

تظهر قصة والدي زوجتي أنه يمكن شفاء الانفصال الذي استمر لفترة طويلة، ولكن هل يمكن أن يُدمر الزواج بسبب ارتكاب الزنا؟ من السهل أن نقول لا ولكن وفقاً لخبرتي يمكن أن يتغير معظم الناس بعدما يسمح لهم بالحصول على الوقت الكافي والتشجيع، فالمحبة تُصالح وتغفر. فحتى أن حتمت الظروف انفصال مؤقت إلا أن المحبة الحقيقية هي الطريق الوحيد للشفاء ولم الشمل من جديد، ولكن هؤلاء الذين يطلّقون ويتزوجون مرة أخرى يغلقون الباب أمام أي فرصة للمصالحة في المستقبل.

قد يستغرق الصدع في الثقة بسبب الخيانة الزوجية سنوات للشفاء، في البداية قد يكون من المهم بالنسبة للزوجين أن يعيشا منفصلين ويحصلا على مشورة من متخصصين، أو أي شكل آخر من أشكال المساعدة بتوجيه من شخص يثق فيه كلاهما، ويجب أن يرغبا في العمل على إعادة بناء ثقتهما حتى يستعيدا زواجهما.

تزامنت بداية كتابتي لهذا الكتاب مع تقديم للمشورة لزوجين انهار زواجهما بسبب الزنا، فقد تزوج أيد وكارول منذ تسع سنوات، وقد عانى أيد من مشكلات في إدمان الكحوليات حتى قبل زواجه مما تسبب في كثير من الصراعات في زواجهما منذ البداية. وعلى الرغم من أنهما بقيا معاً في نفس المنزل ألا أنهما أنفصلا بعيداً عن بعضهما البعض أكثر وأكثر، وبدأ أيد علاقة سرية مع جارته بعد مضي بضع سنوات من زواجهما، ووجدت كارول نفسها تشعر بالإحباط أكثر فأكثر على الرغم من أنها لا تعرف لذلك الشعور سبباً.

فأتى أيد وكارول لبرودهوف في التسعينات، وبعد أيام معدودة من مجيئهما أخبر أيد زوجته بعلاقته مع جارتهما، فلم يتح له ضميره المذنب الشعور بالسلام، ووجد نفسه لا يستطيع إخفاء هذا السر أكثر من ذلك. وشعرت كارول بكآبة شديدة، فقد كان في داخلها شعور بأن هناك شئ ما خطأ منذ زمن طويل ولكنها لم تتخيل أن تكون مخدوعة طوال هذا الوقت. واخبرت أيد في انفعالها أن زواجهما انتهى وأنها لن تغفر له أبداً.

لم يكن من الصعب التعاطف مع مشاعرها ولكني علمت من البداية أنه إن لم تتمكن من الغفران لأيد فلن تشفى الجراح العميقة التي تسبب أيد فيها. وقلت لها إنها إن قبلت الهزيمة فلن تجني شيئاً بل سيبتعدان أكثر عن بعضهما البعض ولن تكون هناك إمكانية لعودتهما مرة أخرى.

وفي نفس الوقت نصحتها بالانفصال الفوري مع تقديم المشورة لكلا الطرفين، فسيساعد هذا الانفصال أيد وكارول على إعادة صياغة مشاعرهما بطريقتهما الخاصة، فلن يكون هناك "إصلاح سريع" إذ أن هذه العملية مؤلمة وتتطلب وقت طويل، ويجب بناء علاقة جديدة من البداية.

وانفصل أيد وكارول لعدة شهور ولكن أثناء فترة الانفصال كان يحرزان تقدما في علاقتهما. في البداية كان الاتصال بينهما يتم باستخدام المكالمات التليفونية فقط، ثم نمت محادثتهما معاً وأصبحت أكثر وبدأ يتزوارن، وتوقف أيد عن تناول الخمور وبالتدريج بدأ الفرح والحرية التي تبعت اعترافه بذنبه وحلا محل الحزن الذي تأصل في الداخل. وصارعت كارول لحظات صعبة ولكنها كانت شغوفة أن تبدأ من جديد لا من أجل أولادها الذين بقوا معها عندما رحل إيد من المنزل فقط ولكن من أجل نفسها أيضاً.

وبدأت تشعر بحب جديد لأيد والأهم من ذلك أنها رغبت في الغفران له بالكامل، وبمجرد أن أدركت أنها أخطأت أيضاً في هذا الامر استطاعت أن تتقابل مع أيد على هذا المستوى.

والآن بعد مضي عشر شهور اجتمع شمل أيد وكارول مرة أخرى، ظهر للجميع غفرانهما المتبادل في احتفال عقد خصيصاً من أجل رجوعهما لبعضهما مرة أخرى، وقاما بتبادل خاتما زواج جديدان تأكيداً على هذا الأمر.

لم يكن أيد وكارول هما أول زوجين أقوم بتقديم المشورة لهم بسبب الزنا ولكن ربما يكونا آخر زوجين، ولكني متأكد أن هناك أزواج أخرين سيجدون القوة لتهدئة العاصفة طالما أن كلا الزوجين يرغبان في السعي لتجديد العلاقة على أساس الغفران والمحبة المتبادلة.

.9

الغفران للأب الذي أساء معاملة أولاده

أنه أمر يبعث على التحرر حينما ندرك بأننا لم نعد ضحايا ماضينا بل بمقدورنا التعلم طرقاً جديدة للتجاوب مع الحاضر. ولكن يوجد خطوة ما وراء هذا الإدراك ألا وهي خطوة المسامحه. فالمسامحة هي تطبيق المحبة وسط ناس يفتقرون المحبه. إنها تحررنا بحيث لا نرجو بعد أي شيء بالمقابل.
هنري ج. م. نووين

يصارع كثيرون اليوم لكي يجدوا شفاءً من ماضيهم المنكسر، فقد تعرضت حياة كثيرين لأحداث سيئة لا يمكن إحصائها بسبب إساءة المعاملة في مرحلة الطفولة سواء كانت هذه الإساءة نفسية أو بدنية أو جنسية وهي أسوأ أنواع الإساءة على الإطلاق. تظهر على شاشة التليفزيون تلك الموضوعات يومياً، فيُعرض برنامج تلو الأخر ومن خلاله نشاهد الناجين من تلك الإساءات يحكون قصصهم المؤلمة للجماهير غير المبالية بما يحدث معهم. ولكن يبدو أنه لا يوجد أي مقدار من تعزية يمكن أن يأتي لهم بالشفاء الذي يرغبون فيه. فكيف يجدوا الشفاء؟

نشأ رونالد في أبلشيان في مزرعة غرب بنسلفانيا، وكان هناك ما يقرب من أربعين فرد من أفراد الأسرة يتشاركون في نفس المنزل، محاولين أن يكسبوا رزقهم من الأرض. وكانت طفولته قاسية فيقول أن أولاد أعمامه كانوا يتعاملون بمنتهى القسوة مع بعضهم البعض ويحكي عن الجدة القاسية التي تعاقب الأطفال بمنتهى القسوة.

وكان والد رونالد شخصاً ذكياً للغاية وترك المزرعة مع أولاده ورحل إلى لونك أيلاند حيث وجد عملاً، وتحسنت أحواله المادية ولكن لم تتحسن علاقاته. فقد تركته زوجته مما جعله يضرب أولاده بصفة مستمرة وفي بعض الأحيان بقسوة، وعاش رونالد في خوف دائم من العنف الذي ينتظره كل يوم بعد عودته من المدرسة إلى البيت.

ثم تعرض والده لحادث سيارة فأصيب بإصابات بالغة، وكُسرت رقبته وأصيب بالشلل من رقبته إلى أسفل. وبعدما كان الطاغية في البيت أصبح مقعداً يعتمد بالكامل على عناية الآخرين باحتياجاته اليومية.

كان لرونالد كل الحق في هجر أباه كطفل، فلماذا يجب أن يبقى معه ويعتني بذلك الرجل الذي أفسد حياته؟ ولكنه لم يبرح من جواره، وعلى الرغم من توافر العون من القائمين على التمريض والأطباء لحالة والده العاجز إلا أن رونالد كان يعتني بنفسه بوالده، كان يسدد احتياجات والده اليومية من غسيل وملابس وتفقد الأيدي العاجزة التي كثيرا ما ضربته بلا رحمة في بعض الأحيان لسنوات طويلة. وبمجرد أن يأخذه للخارج على الكرسي المتحرك ويتحدثان معاً عن الصراعات العاطفية التي مر بها كلاهما، يبدأ الخلاف فيما بينهما.

فما زالت أشباح الماضي تهاجم رونالد من وقت لآخر ولكنه يقول أنه أخيراً وجد السلام الذي افتقده بشدة في طفولته، لأن خدمته لأبيه جعلته يغفر له حتى نال كل منهما الشفاء.

عانى كارل كيديرلينج وكان عضواً في مجتمع برودرهوف ومات عام 1993 من طفولة قاسية، فكانت سنواته الأولى مملوءة بسحب الحرب العالمية الأولى والدمار الاقتصادي الذي تبعها بصفته الابن الوحيد لعائلة ألمانية من الطبقة العاملة. وماتت أمه حين كان في الرابعة من عمره وماتت أمه البديلة حين كان في الرابعة عشر.

وبعد موتها وضع الأب إعلان على ورقة وأغفل فيه وجود كارل قائلا: "أرمل لديه ثلاث بنات يبحث عن مديرة منزل مع إمكانية الزواج منها في المستقبل."

تقدم عدد كبير من النساء وفي النهاية قررت إحداهن أن تبقى، وبعد ما اكتشفت وجود صبي في المنزل لم تغفر لوالد كارل إخفائه هذا الأمر عنها، ولذلك كان طعام كارل أقل من طعام بقية أفراد الأسرة وكثيراً ما كانت تشكو منه لوالده.

وكان والد كارل صامتاً في وجه زوجته الجديدة ولم يفعل أي شئ ليدافع به عن ابنه، في الواقع اشترك مع زوجته الجديدة في إساءة معاملة ابنه فكثيراً ما ضربه بالحزام الجلد مستخدماً ناحية القفل النحاسي، وكلما حاول كارل أن يحمي نفسه كان أبيه يزداد غضباً ويضربه على رأسه وعلى وجهه.

ترك كارل المنزل بمجرد أن أتيحت له الفرصة، والتحق بصفوف الملحدين والساعين لقلب نظام الحكم وغيرهم من الذين اعتقدوا أنه بإمكانهم تغيير العالم

حتى يختلف العالم عما كان عليه في الماضي. وانجذب لحركات الشباب التي كانت تجتاح بلاده في سنوات ما بعد الحرب، وتجول في ألمانيا حتى أتى إلى مجتمع برودرهوف عندها شعر في الحال أنه بين أهله، وقرر أن يبقى بها، وألقى بنفسه في حياة المجموعة ولكن خبرات الطفولة لم تغب عن عينيه أبداً. كانت كراهيته لأبيه تشكل حملاً ثقيلاً على قلبه لذلك قرر أخيراً الذهاب إلى جده ليسكب له مشاعر غضبه وكراهيته.

وكان رد فعل جده مختلفاً: إذ طلب من كارل أن يكتب لوالديه ويطلب منهما الغفران عن الأوقات التي أذى فيها مشاعرهما عن عمد أو التي تسببت في حزنهما، وأخبر كارل أن ينظر لذنوبه هو لا لأخطائهم. تراجع كارل في البداية ولكنه أخذ في النهاية بنصيحة جده، ورد والده على خطابه على الرغم من أنه لم يعتذر عن الأخطاء الفظيعة التي ارتكبها إلا أن الأحمال التي كانت تثقل قلب كارل زالت، ولأول مرة في حياته وجد السلام وأنهى ذلك الفصل المؤلم من حياته ولم يشتك مرة أخرى من طفولته.

تغلبت ماري وهي صديقة للعائلة على ذكريات إساءة المعاملة المؤلمة بنفس الطريقة:

> ماتت أمي في سن الثانية والأربعين تاركة ورائها أبي وثمانية أطفال تتراوح أعمارهم من سنة إلى تسع سنوات. كان موتها أمراً محزناً للعائلة، وأنهار أبي عاطفياً في الوقت الذي كنا فيه بأشد الحاجة إليه، وحاول التحرش بي وبأختي فبدأت أتضايق من وجوده وكرهته.
>
> تركت المنزل وذهبت إلى المدرسة في أوروبا ولم أره مرة أخرى لمدة سبع سنوات، ولكني حملت مشاعر الكراهية نحوه ونمت تلك المشاعر في داخلي.
>
> عندما رجعت إلى أمريكا الجنوبية، خُطبت لشاب كنت أحبه منذ الطفولة، وطلب مني أبي أن أقابله ولكني رفضت، فلم أرغب في مقابلته على الإطلاق. وأصر خطيبي، وقال إنه ليس بإمكاني رفض مثل تلك المقابلة وأنه يجب التجاوب مع اشتياقات والدي للمصالحة وقد كلفني هذا صراعاً حقيقياً وفي النهاية وافقت.

وتقابلنا مع أبي في كافيتريا، وقبل أن أقول أي شئ توجه أبي نحوي وطلب مني الغفران وهو مكسور، فتأثرت للغاية وأدركت أنه لا يمكنني التمسك بكراهيتي لأبي أكثر من ذلك.

يعد الاعتداء على الأطفال من أصعب الأشياء التي يمكن غفرانها في العالم، فالضحية هو طفل برئ في حين أن المعتدي مذنب. فلماذا يغفر البريء للمذنب؟ يؤمن كثير من الأطفال ضحايا سوء المعاملة بأن لهم ذنب فيما حدث لهم بمعنى أنهم يستحقون هذه المعاملة. في الواقع تأتي القوة التي يستخدمها المعتدي على ضحاياه من هذا المبدأ المضلل للاشتراك في الجريمة حتى بعد توقف الاعتداء البدني نفسه. لكن ألا يتضمن الغفران للشخص المعتدي لوم الضحايا على جزء من الحدث؟

بالطبع لا يوجد ما هو أبعد عن الحق من تلك المقولة، فالغفران ضروري ببساطة لأن كل من الضحية والمعتدي -الذين يعرفون بضعهم البعض في معظم الحالات- هم أسرى لظلمة مشتركة، وسيظل كلاهما في تلك الظلمة حتى يفتح شخص ما الباب. الغفران هو الطريق الوحيد للخروج من تلك المشكلة فإن اختار المعتدي أن يظل في الظلام فلا يجب أن نتمسك نحن أيضاً بالظلام، ولكن إن تركنا الباب مفتوحاً فربما سيتبعنا المعتدي إلى النور.

تعرضت كيت وهي جدة الآن في مجتمع برودرهوف إلى سوء المعاملة حين كانت طفلة، ولكن بعدما واجهت مشاعرها وجدت أنه يمكنها التصالح مع أمها التي تغير قلبها فيما بعد:

ولدتُ في مدينة كندية صغيرة بعد الحرب العالمية الثانية بفترة قصيرة وكنت أكبر طفلة من خلفية مانونايت روسية. كنا نعيش وسط مجموعة من الفلاحين في قرية وكانت الإمكانيات التي نعيش بها بدائية للغاية.

وبعدما باع أبي مزرعتنا كان عليه أن يذهب إلى المدينة يومياً ليعمل، وكانت وظيفة أبي على بعد خمس وعشرين ميلاً، وبعد انتهاءه من العمل في النهار كان عليه أن يعمل في قطعة أرض صغيرة بقت ملكاً لنا.

كنا أربعة أطفال كلنا بنات، وكانت هناك صراعات ضمنية في عائلتنا ولكننا لم نفهمها. وعندما وُلد أخي بعدي بتسع سنوات،

أصبحت الأمور أسوأ، فقلّ الوقت الذي تقضيه أمي في المنزل، ولم ندرك حتى ذلك الوقت أنها بدأت تدمن الكحوليات.

لم يمض وقتاً طويلاً حتى بدأت والدة كيت تعود إلى المنزل ثملة، وبعدها انفصل والداها عنها، ولم تكن هناك حياة عائلية لتتحدث عنها. أهملت الأم البيت والغسيل، وألقت بكل شئ على عاتق كيت ذات الثلاثة عشر ربيعاً:

عندما دخل جيمي الصغير مدرسته، لم تكن أمي في المنزل على الإطلاق، ولم أنجح في عمل واجباتي المدرسية ولم أتعلم الكثير، ورسبت في الصف التاسع وكان عليّ إعادة السنة مرة أخرى.

تركت أختاي البيت وحصلتا على وظيفة وأجرا معاً شقة في المدينة، ولكني بقيت في المنزل، فكان لا بد من وجود شخص ليعتني بالصغار، حتى يتمكنوا من الحصول على شئ ليأكلوه بقدر استطاعتي.

ازدحمت المستشفى الخاصة في مدينتنا بالمعاقين ذهنياً وبدنياً وبدأت الحكومة في إطلاق المعاقين الذي لا يحتاجون إلى رعاية كل الوقت لترعاهم العائلات المحلية. وكان هذا مصدر دخل جيد لعائلتنا، وأخذت أمي رجلين كبار السن وسيدة لترعاهم.
وكان عليّ التخلي عن سريري لأحد الرجال ومشاركة السيدة في سرير مزدوج بطابقين ولم تكن تلك السيدة تذوق النوم. وعندما أخبرت أمي أنني لا أستطيع التكيف معها وأنني أريد أن تعيدها إلى المستشفى مرة أخرى لترعاها لم توافق أمي. فهي تحصل على شيك يأتي لنا كل شهر، وقالت أنها ستأتي إلى المنزل في المساء لتساعدني، ولكنها لم تفعل، وقالت أنها تعيش في هذه الفوضى بسببي أنا.

في البداية لم أفهم معنى ما قالته ولكني علمت فيما بعد أن والديَّ أُرغما على الزواج لأن أمي كانت حامل فيّ بالفعل. وفي بعض الأوقات كانت تضربني بشدة وفي الصباح إن سألتني عمن فعل هذا بوجهي أخبرها أنها هي التي فعلت فتقول لي أني كاذبة.

وامتنعت كيت عن الذهاب إلى المدرسة في سن السادسة عشر لكي تكرس حياتها بالكامل لرعاية أخوتها. في هذا الوقت تقابلت مع توم زوج المستقبل وتزوجا بعد عامين من تلك المقابلة، ولكنها ما زالت تتذكر الذنب الذي شعرت به حين سألتها أمها متهمة إياها: "من الذي سيقوم بالعمل هنا في المنزل؟"، ولكن كيت انتقلت من المنزل وسرعان ما كّونت مع توم عائلة خاصة بهما:

> عند هذه المرحلة أردتُ أن أنسى أمي. فقد كانت لي عائلتي الصغيرة وكان أهل توم يحبون أطفالي جداً. وفجأة أرادت أمي الاتصال بي ولكني خلقت العديد من الأعذار لكي لا أزورها. فأخيراً أُتيحت لي الفرصة لكي أرد لها بعض ما فعلته.
>
> ومع مرور الوقت صار طلاق والديّ نهائياً. وبالطبع توقفت أمي عن شرب الخمر، لأنها أدركت أن ضغط الدم والخمر سيقضيان عليها لا محالة. لم تكن لدي رغبة في الاتصال بها، فلا أستطيع أن أثق بها ببساطة.

وبعد عدة سنوات التحق هذان الزوجان بمجتمع برودرهوف، وكانت كيت بانتظار طفل آخر، ودعا توم والدتها لتشاركها ميلاد الطفل الجديد.

> شعرت بأنني كالمجنونة ولم أعرف ماذا يجب أن أفعل تجاه هذا الأمر، فقلت لتوم: "عليك أن تتصل بها وتخبرها ألا تأتي، قل لها أي شئ، هذا طفلي أنا وأنا لا أرغب أن تشاركني ميلاده." كنت غاضبة للغاية وفي النهاية ذهبت إلى أحد الرعاة في مجتمعنا وجلست وتحدثت معه عما حدث.
>
> فاستمع إليّ بهدوء ثم قال: "يجب أن تعيشي في سلام مع والدتك."
>
> فقلت: "أنت لا تعرف أمي!"
>
> فأجاب: "هذا ليس له علاقة بالأمر."
>
> في النهاية أتت أمي، ولم تكن على ما يرام حين وصلت وكانت في حاجة إلى مزيد من الرعاية، ولم أجعل الأمر سهلاً عليها ولكننا في النهاية استطعنا أن نتحدث سوياً. وشعرت أن هناك ما تود أن تخبرني به، والأكثر من هذا أنها كانت راغبة في

الاستماع إلى ما أقوله لها. لقد أرادت علاقة جديدة، وعندها كنت أنا أيضاً أريد مثل هذه العلاقة. وقد كانت مصممة على إزالة أي عوائق تقف في طريق إقامة هذه العلاقة، وعند هذه المرحلة أدركتُ أنها لم تدرك ما كانت تفعله، وعندما استطعتُ أن أغفر لها شفينا جميعاً.

في جو بيتها المحب عاشت كيت في سلام مع والدتها، فقد استطاعت أن تغفر لها الأذى الذي تسببت لها فيه في الماضي، ولكنها أبدت ملاحظة هامة. قالت أن افتقار أمها إلى المحبة لم يكن السبب في بعدهما عن بعض كل هذه السنين ولكن أيضاً برودها غير المفهوم.

ولا تتشابه كل القصص معاً فهناك قصة سوزان وهي امرأة من كاليفورنيا تأتي من ظروف مختلفة تماماً. فهي لم تعاني سوء معاملة على يدي والدها، ولكنها كانت تحمل مرارة تجاه والدتها لسنوات طويلة وبدأت تجد الشفاء في علاقتهما فقط عندما استطاعت أن تغفر لها:

كانت علاقتي بأمي صعبة للغاية منذ بداية إدراكي، فقد كنت أخشى من انفجارات غضبها وضربها ولسانها السليط ولم استطع إرضائها أبداً. ونتيجة لذلك كنت أشعر بالغضب تجاهها، وهو شعور عميق وغضب مختبئ جعلني ابتعد عنها، وراعيت الآلام التي أتذكرها من الجروح التي تسببت لي فيها من طفولتي المبكرة ومن الكلمات الحادة ومن ضربها، وأصبحتُ حساسة للغاية تجاهها وشعرتُ برفضها لي ولأتفه الأسباب.

وبالأحرى، لم تكن لنا أية علاقة مفتوحة أبداً لنفصح عما في قلوبنا لبعضنا البعض. وبدأت أتطلع إلى الكبار الآخرين الذين في حياتي وبصفة خاصة المدرسين، وكرهت أمي تعلقي بالمدرسين ولكنها لم تبح به. وأتذكر أنني تمنيت الابتعاد عن عائلتي وأن يتبناني أحد المدرسين، وأتذكر أيضاً المشاعر القوية بعدم الانتماء لتلك العائلة والتي كانت تجتاحني بشدة.

وحاولت أن أكون بنت "صالحة" وأخفي مشاعري الحقيقية حتى أحظى بقبول أمي لي، ولكن هذا لم يفلح لأنه لم يكن مسموحاً لنا بالرد أو التعبير عن مشاعرنا للأهل أو لأي شخص كبير.

أزداد الأمر سوءً عندما كبرت وبلغت مرحلة النضوج، فقد وجدت مزيد من الأساليب التي أخفي بها غضبي وفعل ما أريد. وجدت أيضاً طرقاً للانتقام من أمي، وسعيت بدرجة كبيرة لأن يكون لي علاقات زنا سرية مع قس الأبرشية الذي له علاقة اجتماعية بوالدي.

وبالطبع انتهت تلك العلاقة وتزوجت رجل آخر ولكني استمرّيت في تلك المتاعب التي أسببها لأمي، فقد كانت علاقتنا غريبة لأني ما زلت أسعى من كل قلبي لإرضائها.

ومرت أمي بأوقات كثيرة من الأزمات الجسدية والعاطفية على مدار كل تلك السنوات ولكني وجدت أنه من الصعب التعاطف معها أو إظهار الاهتمام بما يحدث لها. وأخيراً اقتربتُ منها عندما كانت تُجري برنامج مكون من أثنا عشر خطوة للتخلص من إدمان الكحول، وقضينا أسبوع رائع معاً ولكني أغلقت كل الأبواب بعد ذلك ولمتها على هذا على الرغم من أنني لم أتمكن من معرفة السبب.

أخيراً اتضح لي أن ثقتها في نفسها وسيطرتها الخارجية كانت قناع لتغطي بها الشخصية التي لا تشعر بالأمان والتي تكونت نتيجة لكثير من الجروح التي مرت بها في طفولتها. وحاولنا الاقتراب من بعضنا البعض بطريقة أخرى ولكن كنا نخشى من الرفض لهذا كانت جهودنا سطحية، وأنا أشعر بالخجل حين أقول أنني توقفت عن الكلام بعد أسبوعين.

وحدثت هذه الطفرة في العلاقة بعد عدة سنوات عندما نصحتني إحدى صديقاتي بالاستماع إلى شرائط محادثة لشخص يدعى تشارلز ستانلي، وعلى الرغم من أني لم اسمعه من قبل ولكني كنت أبحث عن إجابات لكثير من الأسئلة في الحياة لهذا استمعت لها بالتدريج. ولا يمكنني تذكر ما قاله بالضبط ولكني سمعت ما كنت أحتاج إليه في ذلك الوقت. لقد رأيت مدى مشاركتي في الحال السئ الذي وصلت إليه علاقتي بأمي وحاجتي لطلب الغفران وتقديمه لها.

زرت والدي بعد ذلك بفترة قصيرة، وعندما كنت بمفردي مع أمي طلبت منها أن تغفر لي تصرفاتي في الماضي وأخبرتها أني سامحتها أيضاً، واعترفت أنني كنت غاضبة منها طوال حياتي. وعلى الرغم من أنني لم أكن متأكدة من السبب وراء شعوري بالغضب منها، وبالرغم من أنها لم تفهم السبب وراء غضبي منها، إلا أنها اعتذرت أيضاً عن الأذى الذي تسببت فيه لي، وقالت: "ما حدث حدث ولا يمكنني تغييره ولكننا يجب أن نترك ما مضى الآن." كان وقتاً لشفاء كل منا، وسمحت لي أن أنفتح معها وأكون أمينة وأعبر عن رغبات قلبي في المحبة وأن أكون محبوبة.

وبمجرد مواجهة مشاعر الغضب التي في داخل كلاً من سوزان ووالدتها استطاع كل منهما أن يبدأ في بناء علاقتهما من جديد. وهناك العديد ممن لهم قصص مشابهة لتلك القصة ومستمرين بالمعاناة بسبب عدم قدرة الأطراف على الغفران. فمن نحن نكون أو من أين أتينا، فهذا ليس مهما. المهم أن نتعلم الغفران، وعندها ستحدث المعجزة. إن الذكريات المؤلمة، ومع كل ذلك، ستظهر من حين لآخر لتعكر صفو العلاقات، ولكن لا يمكننا وللأبد أن نسمح لها بأن تُغيّم سماء مانرتئيه لحياتنا. وحتى عندما يكون النسيان مستحيلاً (وهذا طبيعي) فيجب أن نؤمن بأن الغفران ليس فقط ممكناً بل وضرورياً أيضاً. وحينما نغفر نجد الشفاء الحقيقي.

.10

غفران الإنسان لنفسه

بدون أن نغفر لأنفسنا ونتحرر من عواقب أفعالنا، ستظل قدرتنا على التصرف حبيسة ولن ننال الشفاء أبداً وبذلك نكون مثل صبي الساحر الذي لم يعرف الوصفة السحرية لكسر نفوذ السحر.

هَنا أرينِدت

حتى لو غفر لنا الآخرين هل يمكن أن نغفر لأنفسنا؟ هناك كثيرون معذبون بسبب تصرفاتهم لدرجة أنهم لا يؤمنون بإمكانية شفاءهم. ولكن حتى تلك النفوس المتعبة يمكن أن تجد الرجاء.

وجد ديلف فرانشام، وهو صديق كندي، الحرية من ماضيه عندما أظهر محبته للآخرين، فقد حدثت له مأساة غيرت حياته مثله مثل كثيرين ممن تذكرنا قصصهم هنا في هذا الكتاب، إلا أن قصته مختلفة إلى حد ما فقد كان الشخص الذي يجب أن يغفر له هو نفسه.

تقابلت مع ديلف أول مرة عندما كنت في الثالثة عشر من عمري، فقد انتقل إلى مجتمعنا في أمريكا الجنوبية وبدأ يعلم في مدرستنا، وكان هناك أحد عشر طالباً في فصلي وكنا متوحشين، فقررنا أن نختبره.

وفي يوم عادي في برجواي حيث الرطوبة العالية والحرارة حوالي 100 درجة فهرنهايتية عرضنا عليه أن نأخذه في نزهة لنرى مدى صلافته. وبعد أن مشينا معه لمسافة عشرة كيلومترات على الأقل في وسط الأدغال والمروج، رجعنا، فسقط بمجرد رجوعه إلى البيت مصاباً بضربة شمس.

ظل ديلف في السرير لعدة أيام ولكننا لم نعبأ به، فقد حصلنا على ما أردنا وأثبتنا له أنه "جبان"، ولكننا اندهشنا، ففي اليوم الذي رجع فيه إلى المدرسة قال: "دعونا نجرب تلك النزهة مرة أخرى." ولم نصدق ما يقوله!، فسلكنا نفس

الطريق مرة أخرى متأكدين أنه لن يرجع مريضاً في تلك المرة. وحصل ديلف على احترامنا ودخل قلوبنا ووثقنا به منذ تلك اللحظة فصاعداً، وسريعاً ما اكتشفنا أنه أبعد ما يكون عن الجبن فهو لاعب رياضي موهوب، وأحببنا لعب كرة القدم معه.

وبعد عدة عقود اكتشفت بالصدفة السبب الذي جعله يسكب ديلف محبته وطاقته في عمله بالمدرسة، إذ تبين أنه فقد أبنه في ظروف مأساوية للغاية. ولد نيكولاس في أبريل 1951 عندما كان فرانشام يعيش في جورجيا، وبعد عيد الميلاد عام 1952 بفترة قصيرة، كان يلعب خارج المنزل عندما جرى نحو الشاحنة التي كان والده يحملّها بخشب للوقود، ولم ير ديلف ابنه إلا بعد فوات الأوان.

كانت زوجته كاتي تتحدث مع جارتها داخل المنزل عندما حمل ديلف أبنهما ملقى على ذراعيه فتتذكر قائلة:

> كنت واقفة على وشك الوقوع إلا أن ديلف أمسك بي، وأخذنا طفلنا إلى الطبيب في كلاركسفيل وشرحنا له ما حدث... ولم يكن هناك أية وسيلة لكي أغفر لزوجي عالمة أنني أيضاً يجب أن ألوم نفسي، ولكنه لم يلمني بل تحمل كل اللوم بمفرده ووقفنا معاً في مواجهة تلك المحنة.

ولم يستطع ديلف أن يغفر لنفسه، وظلت تلك الحادثة تلاحقه لسنوات. ومنذ ذلك الوقت قرر أن يستقطع وقتاً للأطفال ذلك الوقت الذي لا يستطيع أن يقضيه مع ابنه الذي قتله. وعندما أنظر إلى الوراء أتذكر كيف كنت أجد عينيه كثيراً ما تمتلئ بالدموع، وعرفت أنه كان حتماً يرى ابنه فينا أو يتخيله. وكان تصميمه على بذل نفسه للآخرين هو الأسلوب الذي اعتنقه للتكفير عن تلك المأساة التي سببها بلا قصد. أنا مقتنع أن هذا الأسلوب حفظه من الاستسلام للشعور بالذنب، وقد استعاد حياته وأخيراً شعوره بالسلام.

التحق **دافيد هارفي** الذي يبلغ الآن السبعين من عمره تقريباً بالجيش حين كان في سن السادسة عشر قبل نهاية الحرب العالمية الثانية. وبعد ما قضى بقية سنوات الحرب في التدريب تم نقله إلى أفريقيا ثم ألمانيا ثم إيطاليا وهونك كونك والصين والبحر المتوسط. في البداية استمتع بوقته في الجيش وبصفة خاصة بالصداقات الحميمة التي شعر بها تجاه أصدقائه من الجنود، ولكن شئ ما حدث وغيّر حياته للأبد.

قضيت جزء من خدمتي في كينيا لأقوم بتنفيذ مهام البوليس وتعقب "الإرهابيين" وكنت أقضي معظم الوقت في مناطق الأدغال. وأثناء أحدى جولاتي اشتركت في حادثة بشعة.
ففيما أنا منتظر وصول عصابة من الإرهابيين، كنا نحن البوليس ننصب الكمين، وكان هناك دوي لصوت طلقات النار وكثير من التشويش وسوء فهم للأوامر، وانقسمت المجموعة إلى قسمين، وسارت المجموعة التي معي في خط مستقيم في طريق تسير فيها الحيوانات في حين كانت المجموعة الثانية تزيل الأشجار الصغيرة التي تعترض الطريق من على كلا الجانبين، ولم يدرك هؤلاء الذين يزيلون الأشجار وجودنا في الطريق وانتهى بنا الأمر ونحن نطلق النيران على بعضنا البعض. لم تكن الأشجار قد أزيلت من أمامي، فأطلقت النار لأصيب قائد الكتيبة في رأسه دون قصد. وتركنا مهمتنا وحملنا المصاب لمدة ستة عشر ساعة عبر الأدغال لنوفر له الرعاية الطبية التي كان يحتاجها بشدة.

بالطبع كانت هناك محاكمة وشروط عسكرية وتلقيت كل اللوم، ولكن لم يهدأ ضميري لأني لم استطع أن أعرف ماذا حدث لقائد الكتيبة بالضبط. وبعد أربع سنوات انتهت مدة خدمتي في الجيش ورجعت للحياة المدنية.

في البداية وجدت أنه أمر صعب للغاية؛ ففي الجيش كان لي رقم لا اسم وكنت مدرباً على الإذعان للأوامر دون مناقشة، وكنت أعتقد أن أي شئ يُطلب مني فهو سليم، الأمر الذي لا يتماشى مع الحياة المدنية. ولكن عادت الأمور لطبيعتها ببطيء، وكان لدي الوقت لأفكر في ذكريات عملي، وكان أول ما يخطر في بالي هو أنني أطلقت النار على صديقي، أين هو؟ كيف كان حاله؟ هل نجا؟

وبعد عدة سنوات بدأت استفسر عن صحة زملائي، ولكني لم أصل لشيء، وتقابلت مع زملائي السابقين الذين قصوا عليّ قصص أخرى لما حدث له. وفي عام 1996 وجدت زوجتي ماريون كتاب يذكر تلك الحادثة، فاتصلت بالكاتب الذي ذكر أنه لم يتقابل مع قائد تلك الكتيبة مؤخراً ولكنه سمع أنه يعيش في لندن.

وأدركت أنني وصلت إلى طريق مسدود آخر، وقررت أن أطلب مساعدة الصحف المحلية، فنشروا قصتي وصورتي في صحيفة أسبوعية، وفي خلال 48 ساعة تلقيت مكالمة من الشخص الذي كنت أريد التحدث معه منذ سنوات.

كانت خبرة مؤلمة ولكن بعد عدة محادثات تليفونية، رتبنا أن نلتقي معاً في منزلي. وفي الوقت المحدد أتى محملاً بالهدايا للرجل الذي أطلق الرصاص عليه، وأصابه بالشلل في أحد جانبيه وكان يجد صعوبة في السير وتحريك ذراعه، فسألته: "هل يمكن أن تغفر لي؟" فاحتضنني وقال أنه قد غفر لي بالفعل.

يعيش جون بلمر حياة هادئة كراعي إصلاحي كنسي في مدينة فيرجينا النائمة هذه الأيام ولكن لم تكن الأمور هكذا من قبل. عمل جون كطيار لطائرة هليكوبتر أثناء حرب فيتنام. وقد ساعد على تنظيم غارة بالنابلم على قرية ترانج بانج في عام 1972 -هي القنبلة التي خلدتها الصورة التي ألتقطها لـ"فان تاي كيم فيك"، أحدى ضحايا تلك القنبلة والتي فازت بالجائزة وهي غلاف هذا الكتاب.

وظلت تلك الصورة تطارد جون لمدة أربع وعشرون سنة فهي الصورة التي تظهر مضمون الحرب لكثيرين، وفيها نرى فتاة تبلغ التاسعة من عمرها عارية ومحترقة تصرخ وهي فاتحة ذراعيها تجري نحو الكاميرا وفي الصورة تظهر سحب الدخان السوداء في السماء من خلفها.

ظل ضميره يعذبه لمدة أربع وعشرون عاماً. كان يريد أن يجد تلك الفتاة لكي يخبرها بأسفه ولكنه لم يستطع، فقد كانت فيتنام كبلد بالنسبة له فصل وانتهى من حياته ولم يستطع أن يقنع نفسه بالذهاب إلى هناك مرة أخرى. حاول أصدقائه تهدئته، لأنه فعل كل ما بوسعه لكي يرى تلك القرية خالية تماماً من المدنيين ولكنه لم يجد سلاماً، فأثر ذلك عليه حيث فشل زواجه وأدمن الخمور.

تقابل جون مع كيم في ذكرى الحرب الفيتنامية في عام 1996 وهي مصادفة لا يمكن تصديقها فقد أتت كيم إلى واشنطن لكي تضع إكليل من الزهور للسلام، وأتى جون مع مجموعة من الطيارين السابقين الذين ما زالوا يبحثون عن حرية من الماضي. وفي الكلمة التي ألقتها كيم أمام الجموع قالت أنها لا تشعر بالمرارة، وعلى الرغم من أنها ما زالت تعاني من الحروق التي تعرضت لها، لكنها أرادت أن يعلم الناس أن هناك آخرين عانوا أكثر منها: "فخلف صورتي

هذه هناك آلاف الناس الذين ماتوا، وفقدوا أجزاء من جسدهم، ودُمرت حياتهم بالكامل، ولم يلتقط أحد صور لهم."[6]

استمرت كيم في كلماتها قائلة أنها غفرت للرجل الذي ألقى بالقنبلة على تلك القرية وعلى الرغم من أنه لا يمكنها تغيير الماضي ألا أنها تريد أن "تدعم السلام". فدفع جون بنفسه بين الجموع واستطاع أن يستحوذ على انتباهها قبل أن تذهب في حراسة الشرطة، وعرّفها بنفسه على أنه الطيار المسئول عن إلقاء تلك القنبلة على قريتها منذ أربع وعشرون عاماً واستطاعا أن يتحدثا معاً لبضع دقائق.

> رأت كيم حزني وألمي وأحزاني، ففتحت ذراعيها لي وعانقتني، ولم أتمكن من قول أي شئ سوى أنني آسف، مرات ومرات، وفي نفس الوقت كانت تقول لي : "حسناً كل شئ على ما يرام لقد غفرت لك."[7]

تقابلا مرة أخرى في نفس اليوم وأكدت له كيم من جديد أنها غفرت له، وأصبحا منذ تلك اللحظة صديقين على اتصال ببعضهما البعض بصفة منتظمة.

هل وجد جون السلام الذي يبحث عنه؟ يقول نعم أنه وجده، وعلى الرغم من أن مشاعره لا زالت متأثرة بذكريات الحرب ألا أنه يشعر أنه الآن يستطيع أن يغفر لنفسه وأن يضع هذا الحدث خلفه.

ويقول جون أنه كان من المهم أن يتقابل وجهاً لوجه مع كيم، وأن يخبرها بأنه يأسف لجروحها، وقد قال أن الغفران الذي حصل عليه هو عطية ولا بشيء يمكن اكتسابه كما أنه لا يستحقه، وأنه سر فهو لا يستطيع أن يفهم كيف أن محادثة استمرت لمدة دقيقتين أزالت الكابوس الذي استمر لمدة أربع وعشرون عاماً.

ريتشارد وهو محارب آخر في فيتنام، رجل وديع وهادئ يحب الأطفال والخيل، ولكن طوال السنوات الخمس التي عرفته فيهم عرفت أنه تعذب بسبب الأحداث التي مر بها منذ أكثر من عقدين:

---

[6] Christian Century, February 19, 1997, 182 – 184

[7] Ibid

> هناك أحداث موت كثيرة تملأ ذهني، فالموت الذي تسببت فيه للآخرين والذي أردت أن يكون من نصيبي لا يفارقني أبداً. فكثيراً ما ألقي بالنكات مع من أعمل معهم، حتى أخفي الألم وأبعد ذهني عن التفكير في هذا الأمر.
>
> ولكني لا أستطيع أن أحب، إذ أن هناك جزء مفقود من نفسي، ويبدو أنني لن أستعيده مرة أخرى أبداً. فلا أعرف إن كان بإمكاني أن أغفر لنفسي كل الأخطاء التي ارتكبتها أم لا. أنني أحيا كل يوم بيومه وأشعر بالتعب طوال الوقت، هل سينتهي هذا التعب الذي أشعر به منذ خمس وعشرون عاماً؟ لا أعرف كيف؟

عادة ما نحث الناس من أمثال ريتشارد على الحصول على مشورة رسمية، فينصحهم الآخرون بأن يجدوا لأنفسهم أناس ممن تعرضوا لخبرات مماثلة لكي يكونوا مجموعات معاً ويحضروا جلسات علاج جماعي، وقد فعل ريتشارد كل ذلك وزار أكثر من مشير وذهب إلى اجتماعات مجموعة المحاربين في فيتنام لمدة عام ولكنه لم يحصل على السلام بعد.

قد تساعد هذه الوسائل في العلاج، ولكن في بعض الأحيان تقف عاجزة عن تقديم حل يدوم لفترة طويلة. فيمكن للطبيب النفسي الناجح أن يشجعك على إعلان الأحمال التي تعاني منها من الماضي ولكن إن لم يتبع هذا ندم واعتراف بالحاجة الشخصية إلى الغفران فلن يكون الاعتراف مجدياً.

يسترجع روبرت كولس الطبيب النفسي محادثة هامة مع آن فرويد، فعلى الرغم من ذيوع صيت والدها إلا أنها أيضاً كانت طبيبة نفسيه مشهورة. وعندما تتحدث عن التاريخ النفسي الطويل والمليء بالمتاعب لإحدى السيدات المسنات، تقول:

> قبل أن نودع هذه السيدة للمرة الأخيرة يجب أن نتساءل فيما بيننا لا أن نكتفي بمجرد التفكير، عما تحتاجه هذه السيدة ولا أقصد مجال العلاج النفسي، فلقد أخذت كفايتها منه. وأظن أني سوف أقضي مزيد من السنوات في تحليل حالتها نفسياً أكثر من عمر تلك السيدة... لقد فاض كأسها بنا، حتى وإن لم تدرك ذلك... إن هذه السيدة لم تكن في حاجة إلينا بالمرة، وإنما كانت في حاجة إلى الغفران. كانت في حاجة لأن يكون لها سلام مع نفسها. فلابد وأن يكون هناك إله في مكان ما قادر أن يساعدها

> ويـسمعها ويـشفيها... ولا يوجـد شـك فـي أننـا غيـر مـؤهلين لمساعدتها في هذا المجال.[8]

يا له من أمر هام للغاية، فلا يمكننا أن نجد السلام والشفاء إن لم نتعلم مواجهة أخطاءنا. فمجرد الاعتراف بالذنب لا يكفي لكي نحصل على الغفران. في بعض الأحيان قد لا يرغب الشخص الذي أخطأنا في حقه أن يغفر لنا، وفي أحيان أخرى لا نرغب نحن أو قد لا نستطيع أن نغفر لأنفسنا. وعندئذ يجب أن نلجأ لله لطلب المساعدة مثلما فعلت آن، فنحن نقبل الغفران كعطية محبة، عندما نشعر بعدم استحقاقنا له. الغفران عطية تحررنا لنغفر للآخرين ولنلزم أنفسنا بالتغيير.

[8] Robert Coles, Havard Diary: Reflections on the Sacred and the Secular (New York: Creossroads, 1990) 177 – 180

.11

قبول المسئولية

إن إعتراف الرجل العجوز بخطاياه المقترفة عند مماته تجعل موته يبدو مولماً ومخزياً في نظر أي أخ له. فبسبب شدة صعوبة وضاعة الموقف هذا نميل نحن وبإستمرار إلى تجنبه. ولكن في أعماق الآلام الفكرية والجسدية للإتضاع أمام أحد الإخوة نختبر ... نجاتنا وخلاصنا.

ديتريتش بون هوفر.

من المستحيل أن نغفر للآخرين إن لم ندرك حاجتنا إلى الغفران، ففي الواقع أن مجرد الاعتراف ليس كافياً، إذ يجب أن نعترف بأخطائنا لشخص آخر.

يرى بعض الناس "الاعتراف" على أنه طقوس كاثوليكية بلا معنى، ويعترف آخرون بأن عملية الاعتراف سواء لقس أو لصديق أو لمشير يمكن أن تكون مفيدة ولكن يمكن للمرء أن يجد سلام القلب دون هذا الاعتراف. ولكن سلام هؤلاء الناس ليس أكثر مما وصفه تولستوي حين قال: "أنه موت النفس."

إن الذنب يُقترف في الخفاء، ويفقد قوته بمجرد خروجه إلى النور... فرغبتنا في أن نظهر بمظهر القوة والفضيلة عادة تبعدنا عن الاعتراف للآخرين بالأخطاء التي ارتكبناها، ونحاول عوضاً عنها أن نمحو تلك الأخطاء من الذاكره، وعندما نفشل في هذا الأمر نحاول أن نخبئها... وبفعلتنا هذه فأننا نضيف إلى شعورنا بالذنب مزيداً من الشعور بالذنب... وإن لم نعترف بالأخطاء التي ارتكبناها ونقبل مسئوليتنا فسيطفح في داخلنا الشعور بالذنب.

فلا علاقة لشعورنا بالأسف عما ارتكبناه مع موضوع تعذيب النفس... فإذا ركزنا نظرنا لأنفسنا فقط، فمصيرنا اليأس... ولكن وبمجرد أن نصرخ بدموع الندم... فلابد أن نزيح أنفسنا جانباً لندع المياه العكرة التي ملأت قلوبنا تتصفّى... وإلا لا يسعنا أبداً روءية القعر.

يكتب سيتف وهو صديق قديم تربى في المناطق شبة الحضرية القريبة من واشنطن في الستينات قائلا:

سعيت إلى العديد من الديانات والدراسات النفسية سعياً وراء السلام والكمال ولكني لم أجد سوى إجابات جزئية، ولكن عندما رأيت مدى خطأ حياتي أدركت كم أنا بحاجة إلى التغيير.

وقد حدثت تلك الخبرة المحورية بغير توقع في أحد أيام عام 1983 عندما أدركت مدى بشاعة الأخطاء التي ارتكبتها، فقد كانت تلك الحقيقة غائبة عني بسبب كبريائي ورغبتي في أن أبدو صالحاً أمام الآخرين. ولكن الآن انسكبت الصور والذكريات مثل نهر في ذاكرتي.

وأردت أن أتحرر وألا يكون في داخلي شيء مظلم أو مختبئ في أعماقي، وأردت أن أصحح أخطائي، فلم أبرر لنفسي قائلا أن ذلك طبيعي بسبب مرحلة الشباب أو بسبب الظروف أو بسبب أصدقاء السوء، فقد كنت مسئولاً عما فعلت.

كتبت تفاصيل الخطايا التي ارتكبتها في صفحة تلو الأخرى، وشعرت كما لو أن ملاك التوبة موجود في داخل قلبي بسيفه وكتبت عشرات الخطابات لأفراد ومؤسسات تحايلت عليها، أو سرقت منها أو كذبت عليها، وأخيراً شعرت بأني حر تماماً.

كتب الروائي الروسي الشهير دستوفيسكي في قصته التي تحمل عنوان "الأخوة كرامزوف" بنفس الفكر عن رجل اعترف بجريمة قتل أخفاها لعقود طويلة، فقال بعد اعترافه: "أشعر بالفرح والسلام لأول مرة من سنوات طويلة، فالسماء في داخل قلبي.. والآن يمكنني أن أجرؤ على محبة أولادي وتقبيلهم."[9]

ينتشر الغفران الحقيقي من شخص لآخر وله القدرة على اكتساح المجتمع كله أو المدينة أو المنطقة:

---

[9] Fyodor Dostoyesky, The Brothers Karamazov, translated by Constance Garnett (New York: The Modern Library, n.d)

اختبر سكان قرية موتلِنجن وهي إحدى القرى التابعة لبلاك فورست بألمانيا، أختبرحركة كهذه في عام 1844، وقد قُلِبت حياتهم رأساً على عقب. أما اليوم فقرية موتلنجن مكان عادي كما كانت قبل سنوات طويلة. والحقيقة أن راعي كنيستهم الذي اشتهر موءخراً كريستوف بلومهاردت، كثيراً ما كان يتنهد بسبب الشعور باللا مبالاة الذي غطى أبرشيته مثل الضباب. غير ان لوحة كانت معلقة على جدار خشبي لأحد المنازل القديمة تشهد عن صحة هذه الأحداث العجيبة التي يومها اكتسحت القرية: "أيها الإنسان فكر في الأبدية ولا تستهن بزمن النعمة لأن نهاية الأيام اقتربت."

وبدأت "الصحوة" كما نطلق عليها اليوم في بداية عام 1843، عندما أتى شاب معروف عنه أنه مدمن خمر وعصبي المزاج إلى بيت القس، وطلب رؤية الراعي، فسمح له بالدخول. وأخبر ذلك الشاب بلومهاردت أنه لم يتمكن من النوم طوال الأسبوع الماضي وأنه يخشى أن يموت إن لم يبح بما في ضميره. وظل بلومهاردت ساكناً ومحترزاً إلى حد ما وبدأ يقبل صدق الإنسان حين سكب قلبه بما فعله من خطايا كبيرة وصغيرة.

وعندها بدأت رياح الندم، ومع حلول 27 يناير 1844 أتى ستة عشر شخص إلى بيت الراعي ليزيحوا عن قلوبهم حمل الخطية، وبعد مضي ثلاثة أيام ارتفع العدد ليصل إلى خمسة وثلاثين، وبعد عشرة أيام وصل إلى أكثر من مائة وخمسين شخص. واتى رجال ونساء من كل القرى المحيطة بموتلِنجن ليسكبوا قلوبهم.

ولم يكن لهذا أي علاقة بالعواطف التي تصاحب "النهضات" الروحية، ولم يكن هناك أي مبالغة في الشرور التي ارتكبت في الماضي أو في التوبة العلنية، فقد كانت تلك الصحوة صادقة وحقيقية ولها جذور عميقة في الواقع، وشعر الناس بأن هناك ما يحثهم داخلياً على قطع علاقتهم بالماضي. لقد اخترق الله قلوبهم ورأوا أنفسهم فجأة بمنتهى القبح، وشعروا أنهم يجب أن يتخلوا عن طرقهم القديمة.

وأخذت تلك الحركة التي لمست القلوب طريقاً أبعد مما تستطيع الكلمات أو المشاعر أن تصفه ونتج عنها تعبيرات ملموسة للتوبة والغفران، فعادت البضائع المسروقة، وتصالح الأعداء، واعترف الناس بجرائمهم بما في ذلك الإجهاض، وحدث شفاء في الزيجات، حتى مدمني الخمور في البلد ابتعدوا عن الحانات.

يحتاج من يشكّون في الصحوة التي حدثت في موتلنجن أن يتبينوا نتائجها ليعرفوا أنها ليست مجرد خيال. وعلى الرغم من سخرية الناس في البلاد الأخرى إلا أن كل القرية تأثرت بتلك الصحوة. في عام 1883 أي حوالي بعد

40 سنة، كتب فريدريتش زينديل (وهو كاتب سيرة بلومهاردت) ؛ أننا لم ننس بعد ما حدث، حتى أطفال أولئك التائبين لايزالون يشعون الفرح الغامر الذي عم تلك القرية. وقد سافرت خلال الثلاثين عاما الماضية كثيراً إلى ألمانيا لكي أزور حفيدات بلومهاردت، (فقد تأثر والديّ بكتاباته وأطلقا علي هذا الاسم ليكون على اسمه)، ويمكنني أن أشهد أن هناك شئ من نفس الروح الذي اكتسح القرية آنذاك ظل على حاله حتى اليوم.

هل الصحوة التي حدثت في موتلنجن حدث منفصل؟ هل يمكن ان يتكرر؟ آمن بلومهاردت بأنه يمكن: فعلى أية حال، إن الأمر كله بدأ برجل نادم واحد فقط.

يمكن تصحيح الخطأ عن طريق الاعتذار البسيط في معظم الأحيان، فعلى سبيل المثال يمكننا أن نعتذر للشخص الذي أخطأنا في حقه وألا سيعتبر هذا عكس الشفقة والرأفة. ولكن من خلال خبرتي وجدت أن الأفعال التي تمت بإرادة الشخص مثل الغش أو السرقة يجب ألا يكتفي فيها بالاعتراف، ولكن يجب مواجهة عواقب مثل هذه الخطايا إذا كانت هناك رغبة في الحصول على تحرر كامل. وهناك أمثلة يكون فيها من الضروري عمل أشياء أكثر من الاعتراف.

فكما يكتب ستانلي هاورفاز: "لا يمكن لأي مجتمع أخوي التغاضي عن خطايا المرء لأنهم تعلموا أن الخطية تمثل تهديداً لسلام المجتمع." وعندما نفكر في أخونا أو أختنا التي أخطأت نحونا فأن هذا الخطأ ليس ضدنا نحن فقط ولكنه أرتكب ضد المجتمع كله."[10]

اختبر مارك ودبي، وهما صديقين لي يعيشان الآن في بنسلفانيا، أختبرا هذا الأمر للمرة الأولى في المجموعة الصغيرة التي كانوا ينتمون لها بكاليفورنيا في أواخر الثمانينات:

> "على مر السنوات، رأينا النتائج المدمرة المترتبة عن تجاهلنا الأخطاء أو محاولة إخفاءها سراً. كنا نعيش ضمن مجتمع متقاسم صغير في المناطق الحضرية في كاليفورنيا مع عدد من الناس، أحدهم كان رجل عازب وقع في حب سيدة متزوجة في مجموعتنا. وحاول بعضنا معالجة تلك الفضيحة باسلوب الحوار معهما بشأنها. ولكن وفي النهاية لم يكن هناك فعلاً أية وسيلة لطرح القضية علناً."

[10] Stanley M. Hauerwas, Christian Existence Today: Essays on Church, World and living in Between (Durham, NC: Labyrinth Press, 1988) 91

ولكننا اخترنا أن نرجح الأمر من أن تلك العلاقة لم تكن علاقة خطيرة للغاية، على الأقل ليست خطيرة بالدرجة التي تجعلنا نكلمهما علناً وذلك خوفا من أن ندينهما... ألا نرتكب جميعاً أخطاء؟ فمن نحن لندينه؟ أقنعنا أنفسنا أن المواجهة ستزيد من شعورهما بالعار ومن أدانتهما لنفسيهما وستجعلهما يدوران في دائرة مفرغة من الفشل. لهذا تجنبناه كما لو كان وبأ، والآن وبعد حين، نرى بأم أعيننا بأن ما يدعى "بالعطف" كان وراء سبب دورانهما في تلك الدائرة المفرغة من الفشل.

على أي حال، فقد هجر الرجل مجتمعنا. وبعد سنتين، هجرت المرأة كذلك بعد أن طلقت زوجها."

أن تجربة مارك ودبي حتماً ليست فريدة من نوعها. أذ إن هذا الزواج قد فشل لأن الجميع حاولوا أن يتجاهلوا ما كان فعلاً يحدث. إن المواجهة أحياناً ضرورية إذا أردنا الحصول على الغفران، فمالم يتواجه أي شخص منّا وجهاً لوجه بما قد فعله من خطايا فسوف لن يسعى لطلب الغفران ولا حتى ينعم بتذوقها. فرفضنا لتجنب المواجهات مع أولئك الذين يجرحون الآخرين يكون أحياناً كالسماح لهم للمضيّ في ما يفعلونه من خطايا،لأننا نقنع أنفسنا بأن هذا الأمر ليس من شأننا، على سبيل المثال. فكما رأينا سلفاً، فإن اختلاق الأعذار لمواجهة الأخطاء هي على نقيض غفرانها تماماً.

يكتب آلان باتون في قصته "فات الوقت أيها الطائر" عن رجل أفريقي محترم ارتكب الخطية التي لا تغتفر ألا وهي الزنا مع امرأة سوداء ولما ظهرت تلك الخطية في النور، انهارت أسرته، وتركه أصدقاؤه وأقرباؤه ومات والده نتيجة شعوره بالعار، إلا أن أحد جيرانه عبر عن حزنه لما حدث فقال:

يمكن معاقبة المذنب، ولكن معنى العقاب أنك لن تتصالح مع ذلك الشخص، وهي في حد ذاتها جريمة أعظم. فإن أخذ الإنسان على عاتقه القيام بدور الله في العقاب، فلا بد أن يأخذ على نفسه تحقيق وعد الله بمصالحة الشخص المذنب.[11]

[11] Alan Paton, too late the Phalarope (New York: Charles Scribner's Sons, 1953) 264-265

يمهد الاعتراف الطريق للغفران والمصالحة وبدونه نظل كما نحن منغلقين على كبرياؤنا غير قادرين أن نغفر. عندما عاد والد زوجتي هانز إلى برودرهوف بعد قضائه لأحد عشر عاماً بعيداً عنها كتب:

> توقعت أن أتلقى الحجارة ولكن لم يحدث هذا، فقد أتيحت لي كل الفرص لكي أعبر بها عن أسئلتي بصراحة وتحدث الجميع بوضوح وصراحة معي، ولكن لم يذب قلبي من الصراحة فقط ولكن من المحبة المسئولة، وهي المحبة التي استعدت للغفران لأنها هي نفسها اختبرت الغفران.
>
> ولم يكن هناك شئ ليتنازع عليه الناس سوى الشيء الذي فصلنا، فباختصار جلس كل منـّا على نفس المقعد. ولم يتم الإطراء بشكل من العواطف بل حتى أكثر الأحداث الموءلمة تمت معالجتها في ضوء المحبة.

تأثر هانز جداً بحب مجتمعه له ولكن رغبتهم في أن يطلبوا منه السماح عن الأمور التي أخطئوا فيها في حقه كسرت عناده.

وتكتب سارة وهي عضوة أخرى في مجتمعنا عن الفرح والحرية التي غمرتها عندما قررت أن تبدأ بداية جديدة:

> كنت أنام بالكاد في الليل، فقد كان رأسي يمتلئ بالكثير من الأمور التي كان يجب أن أصححها. فذهبت إلى أحد أصدقائي الموثوق فيهم، وأخبرته بكل شئ، وقد ساعدني هذا كثيراً، على الرغم من أن ما اعترفت به كان باعثاً على الشعور بالألم. وفي الأيام التالية بدأت أشياء أخرى تتوارد إلى ذهني فلم أتمكن من الانتظار، وأتذكر حين ركضت لأدلو بهم، إذ كان عليّ أن أنقي داخلي للتخلص من الأمور الصغيرة التي تتبادر إلى ذهني، ولم استطع الانتظار.
>
> ولم أعلم أنني سأجد مثل هذا الفرح في الاعتراف والتوبة، فقد أصبح قلبي أنقى.

اكتشفت سارة مثلها مثل الآخرين الذين وجدوا القوة في مواجهة أخطائهم وطلب الغفران شعور رائع بالراحة، وقد توقعت أن يقف ضدها الأعضاء الآخرين في المجتمع بسبب الخطايا التي ارتكبتها في الماضي، وأن يتجنبوها بالكامل بمجرد أن تحكي لهم ما حدث، ولكن لدهشتها وجدتهم يرحبون بأمانتها ويقبلونها بكل

أخطائها. عندما اعترفت سارة بمسئوليتها عن أخطاء الماضي وبدأت من جديد مهد هذا الاعتراف الطريق أمامها للحصول على المصالحة.

.12

هل يمكن أن "نـغفر" لله؟

ليس من الصواب أن تحاول إزاحة كل الآلام، ومن الخطأ أيضاً أن تقاسي منها بلا إكتراث. فالمعاناة يمكن ترضيخها وتحويلها للخير. إذ أن الظروف الخارجية ليست السبب وراء سعادة الإنسان أو تعاسته في الحياة ولكن الأمر يتوقف على موقفنا الداخلي نحو تلك الظروف.

إيبرهارد آرنولد.

عندما نتحدث عن الغفران، عادة ما نتحدث عن الأذى الذي تسببنا فيه لبعضنا البعض، ولكن هناك أوقات يبدو فيها أنه لا يوجد من نلومه، فيميل كثيرون منا سواء كان ذلك بطريقة صحيحة أو خاطئة الى لوم الله لأنه سمح بالألم دون وجود سبب واضح أو مبرر لهذه الصعاب. وعندها نمتلئ بالغضب والألم متسائلين: "كيف يمكن لإله رحيم أن يسمح بهذا؟" هل يمكن أن "نغفر" لله؟

لا أنوي البحث في ما إذا كان من العدل أم لا أن نلوم الله في مثل تلك الظروف، فمن السهل أن نلوم الله ونغفر له حتى لو كنا لا نؤمن به فعلاً بدلاً من أن نواجه احتمال أنه لا يوجد من نلومه. فالغضب مرحلة مشروعة من الحزن حتى عندما لا يكون هناك هدف واضح لنوجه له غضبنا، فنحن بحاجة الى التعبير عن غضبنا والتعامل معه إن كنا نرغب في الحصول على الفرصة المناسبة للشفاء والتقدم للأمام.

هل يمكن أن نتعلم أن نغفر لله عندما نراه مسئولاً عن الألم الذي حدث لنا تماماً مثلما تعلمنا أن نغفر للآخرين عندما نشعر بأنهم جرحونا؟ يكمن الحل في تنمية رغبتنا في التعلم من خبراتنا لكي ينتج منها شئ إيجابي وإلا سيبدو أن الأمر كله سلبي في حياتنا. فعندما يبدو أنه لا يوجد سبب للألم يجب أن نجد سبباً، فلا يمكن أن نحول الأزمة الى كارثة ولكن من الممكن أن نحولها الى فرصة.

وقد واجهتُ أنا شخصياً في حياتي مواقف إحباط وشعرت برغبتي في إلقاء اللوم على الله، ففي أحد المرات كنت في رحلة صيد في ولاية نيويورك وكانت رحلة فاشلة فيما يتعلق بالصيد، ولكنها كانت فرصة للهروب من ضغوط العمل لبضعة أيام.

وفي طريقي الى المنزل لاحظت أنني بدأت أفقد صوتي، فتجاهلت الأمر في البداية متوقعاً أنه سيتحسن خلال بضعة أيام، ولكنه لم يتحسن. فذهبت الى الإخصائي الذي شخص الأمر على أنه شلل في الأحبال الصوتية، وأكد لي أني ساسترد صوتي، ولكن مرت أسابيع وشهور ولم يحدث تغيير، وقد وصف لي راحة تامة للصوت، ولم يكن مسموحاً لي حتى بالهمس، وتساءلت إن كنت ساتحدث مرة أخرى.
ومما أزاد الأمر سوءاً، أن مجتمع حياتنا المشتركة كان في حاجة ماسة الى قيادة قوية في ذلك الوقت، فقد كنا في خضم أزمة إذ كانت فترة مليئة بالصراعات والبحث عن الذات، وخلال تلك الأسابيع لم اتمكن من الكلام أثناء المناقشات المستمرة.

كنت أعتقد أني قادر على المشاركة في هذه الاجتماعات ولكن لم استطع، فلأول مرة أدرك معنى موهبة الكلام، وأصبت بالإحباط واليأس إذ لم استطع التكلم مع زوجتي وأولادي وكان عليّ أن أكتب كل شئ لهم. ولكي أكون أميناً فقد شعرت بالغضب، فلم أفهم كقائد مؤمن لماذا اسكتني الله في الوقت الذي احتاج فيه لصوتي أكثر من أي وقت أخر؟

وبعد ثلاثة شهور، بدأ صوتي يعود، والآن بعد مضي خمس سنوات أصبح طبيعياً، ولكن لم انس تلك الأسابيع الاثنى عشر. فعندما أنظر الى الوراء يمكنني أن أرى أن عجزي عن الكلام ساعدني على تنمية نظرة مرنة ومتواضعة في الحياة، وتعلمت بالتدريج اختزان عيوبي واستخدام نقصي بأفضل طريقة ممكنة، وتذكرت ذلك الوقت الذي جربت فيه بلوم الله للحظات على الإحباط أو المشكلة التي مررت بها.

صارعت أندريا وهي سيدة في مجتمعنا لقبول ظروف مختلفة تماماً، فقد عانت من ثلاث إجهاضات قبل حصولها على طفل سليم، وفي بعض الأحيان وجدت أن حملها ثقيل جداً لا يمكنها احتماله.

> "سعدتُ ونيل عندما اكتشفت أني حامل بعد حوالي ستة أشهر فقط من زواجنا، ولكن في إحدى الليالي قبل عيد الميلاد شعرت بألم حاد ازداد سوءً مع الوقت، وأراد الطبيب أن يرسلني الى

المستشفى، وأتت جارتي والممرضة لتظلا معي حتى تركنا البلدة. وتأكد حدوث ما كنت أخشاه وهو أنني قد أفقد طفلي، وكان الألم العاطفي قاس تماماً كالألم الجسدي الذي شعرت به. لماذا يا الله؟ لماذا أنا؟، لماذا ستأخذ تلك النفس الصغيرة بهذه السرعة؟ ما الخطأ الذي ارتكبته؟

وكانت هناك ضرورة لإجراء جراحة لإنقاذ حياتي، وفقدت الطفل وقضيت أسابيع في المستشفى لاسترد عافيتي، يا له من عيد ميلاد مختلف!

شعرنا بالحزن على ضياع طفلنا وشعرنا بأننا بمفردنا في وسط ذلك الألم، وعندما قال لنا أحد أقاربنا: "ابتهجا! فسيكون حظكما أفضل في المرة التالية" شعرت أنه صفعني على وجهي، حظ؟ لقد فقدنا طفلاً لتونا! طفل!.

أرسل أحدهم بطاقة لي تقول: "الرب أعطى الرب أخذ فليكن اسم الرب مبارك" وقد ضايقني هذا الكارت للغاية. كيف يمكن أن اشكر الله على تلك الخبرة المؤلمة والمحزنة؟ لا استطيع، ولا يمكنني أن اتوقف عن التفكير في أن الله يعاقبني بالرغم من عدم معرفتي بالسبب.

وعزاني الراعي قائلاً: الله إله المحبة، وليس إله العقاب، وهو هنا ليريحك من ألمك، فتمسكت بكلماته مثلما يتمسك الإنسان الغارق بأي شئ ليصل به الى الشاطئ، وقد بدا أن محبة نيل الواضحة علامة مرئية على محبة الله، واكتشفنا أن الألم ربطنا معاً بطريقة جديدة، وتعزيت بالكلمات التي تقول أن "البكاء سيزول مع حلول الصباح".

وبالتدريج ومع الوقت ومساعدة هؤلاء الذين يحيطون بي، استطعت أن أشعر أن تلك الخبرة المؤلمة اعطتني دفعة لمحبة الله الذي يهتم بمعاناة الناس، واقتنعت أنه بجانبي طوال فترة ألمي، وأصبح الله شخص حقيقي أكثر بالنسبة لي وبدأت أثق في محبته.

ولكن بعد عد شهور عندما كنت حاملاً في طفل آخر، واتطلع بشوق لأن تسير الأمور على ما يرام حدث نفس الشئ مرة

أخرى، ألم حاد، ورحلة في سيارة الإسعاف الى المستشفى وعملية لإنقاذ حياتي، وقد فقدت شخص صغير مرة أخرى بعدما تكون. مزق الألم قلبي وكتبت في مذكراتي: "لا استطيع أن أرى لماذا، ربما لن أفهم أبدا لماذا، فأنا بحاجة الى تأكيد الإيمان، ساعدني يا رب."

ووقف نيل بجانبي، إذ فقد أخته بسبب السرطان منذ عدة سنوات وكان ما كتبه عند تلك المرحلة مصدر تشجيع كبير لي: "أننا منفصلون عن الله جسدياً فقط، ولكن تلك المسافة التي تفصلنا عنه ليست كبيرة." ، وتمسكت بهذه الكلمات بكل قوتي.

وبعد عدة أسابيع وشهور من الألم بسبب فقدان ذلك الطفل، فقدت طفل أخر ومرة أخرى عانيت من ألم شديد في قلبي ولكني لم اتساءل في هذه المرة لماذا؟"

واليوم أنديرا أم لطفلة جميلة عمرها ثماني سنوات، وعلى الرغم من أن ذاكرتها عن حالات الحمل الثلاث الذين فقدتهم تأتي في داخلها بطوفان من العواطف، إلا أنها لا تشعر بالمرارة، وتحاول أن ترى الجانب الإيجابي من معاناتها، وتشعر بأنها لا تحب زوجها بعمق وحسب ولكنها أيضاً جازت في الجحيم ورجعت معه وأنها تمتلك كنوز في طفلتها أكثر مما تتوقع.

تزوج جوناثان وجيرتشن رودس في عام 1995، وانتظرا بشغف ميلاد أول طفل لهما، وولد آلان بعد فترة حمل طبيعية. وبعدما خرجا من المستشفى لاحظ الأبوين وجود أشياء غير طبيعية، إذ أن الطفل لا يأكل، وتحكمه في عضلاته ضعيف للغاية، وأنه يبقى في مكانه بلا حركة، وعندما يتنفس يصدر أصوات عالية، ودخل مستشفى جامعي قريب، إلا أن المشكلة لم تتضح قبل بلوغ الطفل ثلاثة أشهر، فقد لا يسير على قدميه وقد لا يتكلم، وكان أعمى، وكانت هناك أمور غير طبيعية واضحة في مفاصله، وعقله وأذنيه ومعدته.

شعر والدي آلان بالإحباط، فقد ظلا فترة طويلة يشكان في وجود شئ خطأ في طفلهما ولكنهما لم يتوقعا أبداً أن يكون الأمر بهذا السوء. بدأ في اتهام أنفسهما وبعدها بدأ في اتهام الله قائلين: "لماذا نحن؟"

وأخبرني جوناثان في أحد المرات أنه كان غاضب ولكنه لا يستطع أن يحدد الشخص الذي يوجه له غضبه، هل هو نفسه؟ أم زوجته؟ أم الأطباء؟ ام الله؟ نعم إذ أنه يمكنه أن يشرح لنا السبب.

> مـن الأشـياء التـي تتعلمهـا بـسرعة ألا تقـارن طفلـك بالأطفـال الآخرين، فطفل جارنا في حجم آلان ولكنـه فـي ثلث عمر آلان، ولا يجد أي مشكلة في شرب زجاجته خلال خمس عشر دقيقة، أمـا نحـن فعنـدما يـشرب سـنتيمتر واحـد مـن الزجاجـة نـشعر بانتصار كبير. لماذا؟ لا يوجد ما نقوله، فإما أن الله يكرهنا أم أن هذا هو ما أراده الله فعلاً لآلن. وقد لا نعرف أبداً لماذا ولكن إن شعرنا بالبغضة فسنقتل إي فرحة يمكن أن نشعر بها.

وعنـدما أتيـا لـي باحتياجهمـا أكـدت لهمـا أنهمـا لـيس مـسئولين بـأي صـورة مـن الصور عن معاناة أبنهمـا، وأخبرتهمـا أن كـل طفـل هو عطيـة مـن الله، وأن آلان ربما يكـون عطيـة خاصـة للغايـة لأن عن طريقه نـتعلم دروس قيمـة عن الـصبر والحنـان، فهـو يـذكرنا بـالأمور الهامـة فـي الحيـاة ويقربنـا مـن بعـضنا الـبعض ويـساعدنا علـى ترتيـب أولوياتنـا بطريقـة سـليمة مثلـه مثـل كـل الأطفـال ذوي الاحتياجات الخاصة.

وما زال والدي آلان يصارعان من أجل الغفران، فهو لـيس سـهلا، فهنـاك أوقـات يرغبـان فيهـا فـي الهـروب، عنـدما لا يتمكنـا مـن مواجهـة زائـر آخـر يقـدم لهمـا كلمات عطف بلا معنى.

وإذ يقترب آلان من عيد ميلاده الأول يواجه والديه شكوك أكبر، فقد كـان عليـه أن يركب خراطيم للطعام وفوق كل ذلك استئصال الزائدة، فـالى أي حد يمكن للإنسان أن يتحمل؟

وفـي عـالم يـدعو إلـى "التـشخيص المبكـر" كـإجراءاً لتفـادي حـالات الأطفـال المشوهين، يشهد والدي آلان عن القيمة الجوهرية لكل طفل فـي العالم. ويقولـون بأن آلان ليس مسألة شذوذ وراثي. وإنما هو إنسان لديه الكثير ليقولـه لنـا، وأنهمـا ليس على استعداد لأن يسمحا له أن يموت. وتكتب الأم كريتشن قائلة:

> تقترب يده الصغيرة المليئة بالأسلاك مـن خـدي. وعنـدما اقتـرب لكي أرفعه من سريره تتحرك جفونـه للأعلـى ويعطينـي إبتسامة وهو نـائم... وإذ يتم أحد عشر شهر كان آلان قد دخـل المستـشفى خمس مرات؛ أما عدد زيارات العيادات فلم نعد نحصيها بعد. وفي كل مـرة نرجـع فيهـا الـى البيت يكـون فـي داخلنـا مزيـد مـن الأسئلة وقليل من الأجوبة؛ ومزيد من الدموع، ويقيناً أقل. ولكن

عنـدما يـشدّ نفـسه بإتجـاهي وينظـر حواليـه بحـب الإسـتطلاع، يبتسم. ورضـايَّ به بَلسم لقلبي.

مـا مـدى الألـم الـذي يمكـن أن يحتملـه؟ ومـاهي العقبـات الجديـدة التي تنتظرنا؟ فقد أزال استئصال الزائدة بعض الأحداث المثيـرة التـي كنـا نتطلـع لهـا مثـل الأكـل بقنينـة الحليـب أوحتـى بعـض الطعـام القـوي. فلـم تعـد هنـاك قرقـرات الـضحك، ولا صـرخات الإحباط.

ويخبرنا الأطباء أنه لو عاش فقد لا يحتيـاج الـى تلك الخـراطيم. "لو عاش". يا لها من كلمات تمزق قلبي، ولكن ابتسامته لاتـزال تعطينا أمل. فهو يعلمنا القبول وبالتالي الغفران كل يوم.

خـاتمـة

الـكل صار جـديداً

بما أنك تطلب العدل فاعتبر هذا:
أنه في منظار العدالة لا يستحق أي منا
روءية الخلاص. ولكننا نظّل نصلي طلباً للرحمة،
وهذه الصلاة تعلمنا أجمعين تقديم أعمال الرحمة.

وليم شكسبير

الغفران قوة، فهو يحررنـا من ماضينا، وبـه نتغلب على الشر، ويمكنـه أن يشفي الشخص الذي يغفر والشخص المغفور لـه. في الواقع، يمكن أن يغير الغفران العالم، إن سمحنا له أن يتدفق من خلالنـا. ولكن كم نقف في طريقه لنعوقه ولا نجروء على لمس قوتـه**!** فنحن نمسك بمفاتيح الغفران في أيدينا، ولكن هل سنستخدمها كل يوم أم لا.

في السنة الماضية تقابلت مرتين مع رجل ينتظر الحكم بإعدامه من ولاية كونِكتِكَت الأمريكيه، وهو ميشيل روس في السابعة والثلاثين من عمره، متخرج من كورنيل، وهو قاتل ومغتصب، ولا يمكن لأحد أن ينكر الرعب من جرائمه، ولا يمكن لأحد أن يدعي أنه يتكلم بالنيابة عن أسر ضحاياه، لأنه إن فعل زاد من المعاناة والألم الذي يحتملونه. ولكن يجب ألا نتغاضى عن أن نرى ميشيل وهو بحاجة للغفران والشفاء:

> أشعر بشعور عميق بالذنب، فأشعر بالذنب يغمرني، لدرجة أنه يحيط نفسي بالظلام، وبسحب كراهية النفس المعذبة، والندم والأسى، فأنا أتوق الى المصالحة أكثر من أي شئ آخر، المصالحة مع روح ضحاياي، مع عائلتهم وأصدقائهم وكذلك أتوق الى المصالحة مع الله.

هل يمكن أن نتخلى عن مثل هذا الرجل؟ ألا يجب أن نواجهه بكل الرعب الذي تسبب فيه كأخ لنا في البشرية؟

في بداية هذا الكتاب كتبت عن رجل قتل فتاة تبلغ السابعة من عمرها، وسألت هل يمكن أن نغفر لمثل هذا الرجل؟ لقد تغير ذلك الرجل تغيراً ملحوظاً في السنوات التي تلت مقابلتي الأولى معه. فعلى الرغم من أنه كان مشلولا عاطفياً ورأى جرائمه على أنها نتيجة حتمية للأمراض المنتشرة في المجتمع، إلا أنه قبل مسئوليته تجاه أفعاله، وبدأ يدرك حاجته الى التغيير والغفران وبكي من أجل الآخرين أكثر من بكائه على نفسه. قد رأيت من خلال مقابلتي مع ذلك الرجل مواجهته مع الشر الناتج عن جرائمه وبدأ يعترف بمسئوليته ويبدي الندم.

هل يمكن الغفران لمثل هذا الرجل؟ إن كنا نؤمن فعلاً بقوة الغفران المغيرة، يجب أن نؤمن أنه يمكن أن يحصل على الغفران، ولكن يجب ألا نقلل من جرائمه التي ارتكبها، وفي نفس الوقت يجب ألا ننكر عليه فرصته في التغيير. فكما قال مارتن لوثر كينج أن الغفران له القدرة على تغيير العدو ليصبح صديق. والحقيقة هي أن الغفران غير حياة هؤلاء الذين ذكرنا قصصهم في هذا الكتاب، وغير المدينة الصغيرة التي تدعى موتلينجين في الأربعينات. لذلك يجب أن نؤمن أن الغفران قادر على تغيير العالم كله اليوم.

برودرهوف

أن برودرهوف حركة مسيحية عالمية كرست حياتها للبساطة والعيش في مجتمع أخوي ونبذ العنف. سعت حركة برودرهوف مثلها مثل المسيحين الأوائل والحركات الدينية العريقة الأخرى، إلى الحصول على مساحة من الأرض على أساس أنها ملكية مشتركة، ولا يقدم الناس فيها أموالهم وممتلكاتهم فحسب بل أيضاً وقتهم ومواهبهم أيضا، وفي أعماق قلوبهم هناك تكريس للخدمة ومحبة القريب والعائلة والأمانة لتعاليم يسوع.

وقد أسس العلامّة إيبرهارد آرنولد حركة مجتمع برودرهوف (ومعنى الاسم "مكان الأخوة") في ألمانيا في عام 1920 مقتدين بإرث حركة الأنابابتست وحركة الهوتريين منذ القرن السادس عشر في أوروبا. وقد اضطر معتنقي هذه الحركة على ترك ألمانيا النازية في عام 1937 ووجدوا ملجأ لهم في انجلترا قبل أن يستقروا في أمريكا اللاتينيه. وانفتح أول مجتمع أمريكي لهم في عام 1954. ومع بداية الستينات انتقل كل أعضاء برودرهوف من جميع مجتمعاتهم التي كانت آنذاك منتشرة في عدة دول الى الولايات المتحدة و انجلترا. ويوجد الآن حوالي سبع مجتمعات للبرودرهوف في الشمال الشرقي من الولايات المتحدة الأمريكية وثلاثة في جنوب انجلترا، ويبلغ إجمالي عدد الأعضاء 2500 رجل وامرأة وطفل.

تشترك البرودرهوف في جانب واسع من الخدمة الاجتماعية والأنشطة المقدمة للمجتمع مثل زيارة المساجين والعمل مع المشردين، وهم يعارضون بشدة عقوبة الإعدام ويحاولون تعزيز العدالة والسلام والمصالحة؛المصالحة سواء في الحياة السياسية أو الشخصية وبصفة خاصة في المناطق التي بها علاقات عنصرية أو حوارات بين الأديان.

وعلى الرغم من وجود الكثير من نسل البرودرهوف الأصليين في المجتمع إلا أن العضوية مفتوحة لأي شخص يسعى الى حياة البساطة والخدمة المبنية على الإيمان. ويعمل جميع الأعضاء دون الحصول على أجر، وبالتزام نحو العلاقات مع الأخوة والأخوات من رفقائهم في الطريق. ويرحب المجتمع بالزائرين،

وتستـضيف مجتمعـات برودرهـوف آلاف الزائـرين سـنويا، مـن كـل الـديانات والخلفيات.

لمزيد من المعلومات قم بزيارة موقع برودرهوف على الإنترنت
http://www.almujtama-alakhawy.com
أو قم بالكتابة لـ:

Spring valley Bruderhof
Rte 381 North
Farmington PA 15437 -9506
USA

أو في المملكة المتحدة أكتب الى:

Darvell Bruderhof
Robertsbridge
E. Sussex TN 32 5DR

الغلاف الأخير

نيلسون مانديلا: أنها رسالة مهمة لا لجنوب أفريقيا فقط، بل للعالم بأسره.
آلا بوكليست: أنه كتاب مؤثر للغاية، وقوي جداً لدرجة أن تنساب الدموع من عينيك حين تقرأه.
فيدال كاسترو: أنه كتاب هام يناقش موضوع مهم بالنسبة للبشرية كلها.
آرون غاندي: في تسرعنا نحو الإدانه عادة ما نفقد فن الغفران، ويأخذنا هذا الكتاب الى أعماق روحية ويظهر لنا كيف أن الغفران عمل إلهي.
توني ب. هول: زادت معرفتي من خلال قراءتي لهذا الكتاب، وكان مفيداً في مساعدتي على تحديد القضايا، وأني واثق من أنه سيساعد كثيرون أيضاً.
ديفيد ي. بير: مقدم برنامج تليفزيوني- يظهر هذا الكتاب الذي نحن بحاجة له اليوم، قوة الغفران الثورية والمُغَيّرة والبنّائه.
أندرو فيرجسون: أني مقتنع تماماً أن الفشل في الغفران هو السبب الرئيسي للأمراض وأنصح بهذا الكتاب لشفاء النفس والجسد.
بول براند: هذا هو الكتاب الذي سأختاره لأصدقائي الذين يبررون غضبهم. فهو إعلان قوي عن أهمية الغفران للنفس البشرية.

الكاتب

ي. كريستوف آرنولد: راعي له خبرة كبيرة ويعمل في مجال تقديم المشورة للمتزوجين، وهو قائد في مجتمع برودرهوف وهي حركة عالمية مكرسة لحياة البساطة والمجتمع ونبذ العنف.

نص من إحدى القصص

ففتحت ذراعيها لي وعانقتني، ولم أتمكن من قول أي شئ سوى أنني آسف، مرات ومرات، وفي نفس الوقت كانت تقول لي : "حسناً كل شئ على ما يرام لقد غفرت لك"

جون بلمر

أحد العسكريين من حرب فيتنام،قصة الغلاف

كلمة عن الكتاب

إن فن الغفران الضائع عبارة عن مجموعة من القصص التي تظهر قوة الغفران على الشفاء من خلال اختبارات أناس عاديين أرهبتهم الجريمة والحرب والاغتصاب وغيرها من الأحداث فهو لا يناقش عقائد نظرية وإنما يسمح لحياة وأصوات من غفروا أن تشهد بذلك.